دكان الميلودي

عاشور الطويبي



رواية

دار أركنو

عاشور الطويبي

دكّان الميلودي

رواية

دكان الميلودي: رواية

دار أركنو للطباعة والنشر، ليبيا

تاريخ النشر: 2025

لوحة الغلاف: عاشور الطويبي

المصروب

لقد انتظرتُ طويلًا. منُذ زمن بعيد كنتُ اصطاد على الجانب الآخر من هذا البحر، لم يكن الصيد سيئًا. كان عددنا يتناقص باستمرار. البعض ذهب مع قوافل الإبل إلى الجنوب، البعض دخل حواري المدينة القديمة؟ البعض الآخر وأنا منهم بقيت على شطّ البحر أجمع خطوط السحب النحيلة في الصباح آخذها معي إلى ميعاد الميلودي فوق الرّكّابة الطينية.

الميلودي لا نعرف عمره. في الواقع هو بالنسبة لنا مثل شجرة السرْول أو طابية الحاج الدوفاني أو ماكينة الخياطة بتاع السطا علي بوالمرايات. الميلودي عرفناه هكذا، غادرنا أو غادرناه هكذا. لم يتغير شيء فيه. بقي كما هو، أنا أوافق المصروب الذي قال:

"الميلودي عَضمه بركاني يكسّر الدنيا، ما يتكسرّش، الميلودي قلبه حقَّاني يخاف على النملة في العنصْرة ويخشْ على الأسد في ملكه، يقولّه: طز في عينك."

الميلودي، قال خليل الدحّاي: "أني مانبّيش نعرفه، علاش نعرفه كان ما فيش فرْق عرفته والاّ ماعرفتاش الميلودي هو الميلودي أوْكان ينوضْ موسيليني من قبره".

مرة، كان الوقت صيفًا، جئتُ إلى الدكان مبكرًا، لم يأتِ أحد من الجماعة قال لي:

"الوقت يا ولدي ما يكسره غير الصبر، الصبر ما يكسره غير الراجل"

لم أفكّر في حكمته فقد كنت مشغولا بالمصروب الذي التحق بالبوليس كنّا قد ذهبنا معه إلى معهد البوليس في زنزور، الدحّاي لبسْ كندرة فقّاقي وشخشير مزلّز

الحدّاد قال له: "اسمع يا مصروب أنت تعرف واحني كلّنا نعرف ليش سمّوك مصروب، راهي مهيّاش عيب البطن تمشي ديمة واللي بطنه ما تمشيش يموت"

علّق الدحّاي: "وياما ناس رفعتهم بطونهم للقبر"

كان الميلودي يمشي وراءنا هز رأسه، قال: "إيه يا مصروب يا ولدي الطمع وقطع الرقبة متحاديين".

المصروب لم يعجبه وكذلك نحن، كلام الحدّاد عن مشي البطن وأنّ المصروب بطنه كانت تمشي أكثر من رجليه، لكنّنا لم نستطع الاعتراض فالحدّاد أولا صاحبنا من قديم، ثانيًا هو الوحيد الذي يفكّر في الذهاب إلى الجامعة، نحن مهما كان، العلم نعرف قيمته.

قال الحدّاد: "توّا هذا وين بتولّي راجل"

ارتعشتْ عين المصروب، حركة نعرفها تمامًا حين يُحرج أو يغضب. تقلّصتْ عضلات رقبته، امتدّت أصابعه تمسك بقوة يد الساكو الذي اشتراه الدحّاي من معلم مصري في مدرسة جامع عمورة..

"اسمع يا مصروب راكْ تزعل مني أني زيْ خوك ونعرف الفقر والبهدلة قعدتْ أربعة سنين في داخلي الزاوية" "اسمعني كويس يا مصروب ياخوي تبات جعّان خير من لقمة تشخّها في بيت الراحة وثاني يوم عينك ما تقدر تقيمها. خيط السباولو أحنْ على جلدك من الحرير كان طلبته"

لم نرغب أن نقطع نصائح الحدّاد وأيضا أردنا أن نزيد من إحراج المصروب. مش ديمة تحصلْ على المصروب. سمعنا الميلودي من ورائنا: "يا ولدي اللي تتركه تعيش بلاه والخشم اليَا طاح مرّة تصعب عليه النوضة"

همس الدحّاي: "المصروب ينوّضه، ينوّضه ما تخافش عليه يا عمي الميلودي".

كان المعهد في مدخل غابة صغيرة له سور واطئ يعني على طولنا من الطين عريض وأملس مجيّر من برّه. أمام البوابة أو تحديدًا على جانبيها شجرتا سرول كبيرتان، ظلهما يمتد إلى مسافة كبيرة. إحساسي بالمعهد أي معهد ربما الكلمة التي تختلف عن مدرسة فهو مكان أولا للكبار، ثانيا يتعهدك بالرعاية ليس في العلم فحسب، لكن يبدو انه في أمور الدنيا أيضا، أي يجعلك رجلا تمامًا. حين دخل المصروب البوابة كنت أعلم أنّ الحاجز ارتفع بيننا. كلّها ستة أشهر ويجوب ربما منطقتنا مرتديًا بذلة البوليس الغامقة وربما يقرّر وقتها أن يربي شاربه وقد لا يتذكرنا حتى، حضنه الحدّاد بقوة أما الدحّاي فقد اكتفى بتلويحة من يده وهو يدندن بمطلع

أغنية لفريد الأطرش. أنا فقد وقفت محتميًا من البكاء بالميلودي الذي أدخل ورقة عشرة جنيه في جيب المصروب وهو يحاول أنْ لا يراه أحد.

قال الحدّاد: "يلعن دينه الميلودي يا خوتي سيد التريسْ، ريتوا شنْ دارْ يوم اللي المصروب خشْ فيه المعهد؟" أجبنا معا أنا والدحّاي:" شنو ؟"

لكن الحدّاد انتبه إلى المقلب المعد له ورفع يده شاتما: "آه يا ولاد الشرموطة قاعدين تتمهتكوا عليّ".

عند العودة طلب منا الميلودي أن يمضي وحده إذ لديه موعد هام، رأيناه جالسًا أمام البحر في الصقالة، تسيل من عينيه الدموع، كان يبكي على المصروب

قال الدحّاي: "يا جماعة والله كان البو يختاروا فيه أنا نختار الميلودي" لكزه الحدّاد في جنبه قائلا له: "من قال مش هو؟"

تتابعت ضحكاتنا، تراجعت خطواتنا، ونحن نبتعد عن الميلودي الذي كان يجلس أمام البحر وحيدا ثم هتفنا في صوت واحد: "ينصر دينك يا ميلودي"

الميلودي

في عشيّة خريفية كنت جالساً على الرّكّابة الطينية قدّام الدكان، جاءني صوته من الداخل: "اسمع، تعرف، أمس بعتولي الجماعة كرموس يابس من الجبل تبي نعطيك منه وإلا الحال من بعضه"

"من الجماعة يا ميلودي؟" سألته

اختفى صوته لم يعد هناك صوت! كنت فقط أسمع حركة نقل بعض الأغراض وبعض همهمات لا تكاد تسمع، غير أنه بعد قليل خرج، جلس بجانبي واضعًا يده على كتفي، قال لي:

"الجماعة ممكن تكون ميّة ممكن ألف ممكن حتى مليون، وممكن حتى واحد العدد يا ولدي مش مهم، العدد يزيد وينقص لكن القيمة كان ليها قيمة ما تنقصش، أزمان واني في برّ الحبش كان معاي واحد ريّاني ما عنداش خوت".

لمحت تشنج عضلة الجفن الأيمن رفع يده مسح شاربه الصغير بيده ساحبا كمية كبيرة من الهواء الخريفي الذي تراءى لي أنه أيضا يستمع لحديثنا، قرّب ساقه اهتزّت نملة سوداء وهي تشدّ عود قشّ نخيل. أخذتُ في مراقبتها والميلودي يلمّ مزيدًا من الهواء في رئتيه. كانت حفرة

النمل ليست بعيدة عن الرّكّابة، بجانب الفتحة حرّاس غلاظ يلمسون كل نملة تدخل أو تخرج، حركة لا تنتهي.   قلت في نفسي: سبحان الله ليحطّمنكم سليمان وجنوده!

وراء السور خلف أشجار الصبار أخذت الشمس في الانحسار من مسرح ذلك اليوم.

التفتَ إلي وقال: "زعْمه وينه توّا؟ حي والا ميّت؟!"

"الريّاني بوكمّية هكّي سميناه جابهاله خاله من غات."

غابت الشمس وأسرعت الأعداد القليلة من النمل إلى دخول الحفرة لاحظت أن حركة الحرّاس أصبحت متوترة إذ كانت تدور حول نفسها رافعة أرجلها الأمامية. في البداية كنت قلقًا، لكن ليس بالقدر الذي يجعلني لا أرى ما يجري من حولي.

كان الوقت صيفًا. كان ذلك الصيف ساخنًا جدا، لسنتين متتاليتين لم يسقط فيهما المطر، الأرض التي حرثناها صارت يابسة، ما بذرناه فيها من شعير اقتسمناه، سفاته الريح، لم ينبت شيء لم تخرج الرؤوس الخضراء من الأرض. مرّ الشتاء بائساً، الأجساد نخرها البرد القارس في الهيرة وفي الحمادة الحمراء، كنّا في الليالي الطويلة نلتقي حول مرّكاب الشاي، نتحاشى النظر في عيون بعضنا. كنا خائفين من البرد والجوع وضربات الطليان الفاشيست وحملات الفلاّقة.

ذلك الصيف الحار بعد أن ماتت ابنتي، أصاب السلّ زوجتي وابني الصغير حمد، دار الطين سقط الجزء الأكبر من سقفها، حتى الجمل الذي هو كلّ ما أملك في الدنيا ضاع مني في ليلة

لا زلت أذكرها ربما سرقه أحد الجيّاشة وما كان أكثرهم ذلك الوقت. ذهبت حافيًا، الجرد الصوفي يغطي جسدي إلى العزيزية وغريان، توقفت في يفرن، سألت وفتشت لكنني لم أجد جملي. كنت يائسًا، متعبًا وجائعاً لم أرجع إلى بيتي قلت في نفسي أرجع إلى ماذا وبماذا، نزلت إلى طرابلس وانضممت إلى الجيش الطلياني. والله يا ولدي ما خنت وطني، لكن الجوع كافر. إن نشا لله ما تجربه.

قرب السواني في ساحة واسعة متربة تجمعنا عراة حفاة، الصغير والكبير. كنّا من أغلب المناطق، تجنّبنا أن نسأل بعضنا، تبادلنا القليل من الكلمات. كنا نرى حجم الخطأ الذي ارتكبناه، كذلك نعلم حجم الهمّ والجوع الذي يثقل ظهورنا. كنّا كالغريق لا يبحث إلا عن قشة نجاة ولو كانت الموت. كان الخوف والجبن والذلّ فراشنا وغطانا، كنا شبه أموات نسير على أقدام متشقّقة متعبة. نصبوا الخيام، جاء الشاويش طلب منا الوقوف في صفوف. أخذ أسماءنا وأعمارنا وأسماء قبائلنا. كان الضابط جالسًا فوق تبّة صغيرة تبعد بضعة أمتار من الشاويش، وراءه يقف رجل قصير أسمر اللون، ضامر الجسم، وشارب أشعث طويل نسبيًا. كان الرجل يمسك بيديه، شمسية كبيرة، فوق رأس الضابط. كان يحاول بين المرّة والأخرى أن يدخل رأسه أيضا تحت الشمسية. لم يبدو على الضابط أنه مهتم بنا، ربما كان يفكّر في شخص ما في إيطاليا أو حتى في طرابلس أو أيّ مدينة في العالم. مهما كان ما يفكّر فيه هذا الضابط في تلك العشّية الحارّة من العار والذل لم يكن له علاقة بالحرب. حرّك الرجل

الأسمر رجليه عدّة مرّات لكنّه لم يغير من وضع يديه، الطاقية وعليها الريشة، الجّاكّة وحزام الجلد، كم كنتُ أودّ أن أحصل منهم على الصفّارة، قالوا الشاويش بس يعطوه صفّارة!

مرّة سألني الريّاني:

" ليش مايعطوناش كنادر؟"

نظرت إلى قدميه كانتا مثل الكرناف اليابس في يده عصا من الطلح يحرك بها التراب. كنّا قد انتهينا من جولة استطلاعية مات فيها بوخرّوبة. أمرنا الشاويش الطلياني أن ندفنه دون أن نصلّي عليه. لم نتكلّم! وقف الريّاني ووقفنا وراءه، صلّينا صلاة الجنازة. حين انتهينا، رأينا الشاويش يهرش رأسه بقوّة وهو يلعن الليبيين والدوتشي والكاتْسو بتاع إيطاليا، رفعت بصري نحوه، قلت في صوت لا يحمل أيّ معنى: "ليش؟"

انقولّك قاللي الريّاني " لو لبْسوك كندرة مش مهم جلد أو قماش بعد مدة شن يصيرلها؟ "

"تبيد" أجبته،

"عليك نور، باهي وآمتى تبيد شن بيصير؟"

"تطلب وحده تانية"، أجبت

"عليك نور وهديك بعد مدة شن بيصيرلها؟"

"اوفّا شن ولّت خرّافة أم بسيسي، يا قول يا بطّل"، قلتُ في غضب

"عليك نور يا ميلودي"

"الرِجل تبيد من المشي؟"

"لا"، أجبت

"مش ماتبيدش لكن تدير غلاف زي الكرناف، كان مش مصدّق شوف رجلك والّا رجلي."

كانت الأرض مثل العدو، لكن ما العدو؟! ليس بالضرورة أن نقول من العدو، لتستقيم اللغة. على كلّ حال هذا أمر ليس مهما بقدر محاولة الرؤية بوضوح وفهم ما يحدث حولنا. المكان يصبح عدوّاً حينما لا تعرف عنه شيئا، الشاويش كان ينظر في البوصلة والخريطة ليتثبّت من الاتجاهات. نحن قرابة المائتين نسير وراءه تثقل ظهورنا ما نحمله من معدات لم تتطور التقنية بعد لتجعلها صغيرة وخفيفة

قال الريّاني وهو يسير على يميني: "حمارتنا تفهم خير منه! حُكّة وكالاميطة توريك مغرّب من مشرّق، مقبّل من مبحّر، شوف ياميلودي زعْمه حمارتنا في راسها كالاميطة والا معاطي من ربي؟"

بتْنا الليلة الأولى في منطقة قريبة من فشلوم، وإلا انقولّك قريبة من جبّانة سيدي الهاني، يا ودّي في الجهة هاديك. ياسيدي كانت المطر خيط من سِمي والريح زي السيف تقطّع في وجوهنا تقطيع. تعرف زيْ ما تقول اتّفقنا، ما فيش واحد فينا قال آه

قلت له: "التريس تفرق مش زي توّا"

أحنى رأسه، علامات حزن تغلّف وجهه وبصوت فيه كثير من الانهزام

"يا ولدي عمرك ما تحكم على الراجل كان راجل والا لا. راهو صحْ اللي قالوه الرجلة تحضر وتغيب"

في الصباح وَقدْنا النار، شربنا ما كتّب ربي، شاهي مطبوخ ومضغنا خبزة يابسة. بعدين جاني الريّاني تضربه بموس ما تطّلّعشْ منّه بلّه أصفر زي البزار قاللي:

" بيرفعونا لبرْ الحبَشْ."

نظر إليّ بعينين ساهمتين، يمكنني أن أقول ميتتين طويلاً ثم حمل قليلاً من التراب في راحة يده اليمنى ورفعها إلى مستوى فمه ثم نفخ نفخة قوية فتطاير الرمل في كلّ اتجاه وقال:

"هكذا هم الناس، هكذا هي الأحلام، هكذا هي الدنيا. "

الحدّاد

لا يختلف عن بقية الرجال أو الذين يسمون بالرجال. له نفس المكونات الأساسية من أطراف وجدع، رقبة ورأس. بداخله مجموعة من الأعضاء التي مهمتها جعله يستمر في التنفس، البلع، التبول والتغوط وبعض الوظائف التي تتحدد قيمتها في وقتها. أغلب هذه الوظائف تعرف بالوظائف الحيوية!، لكن ما هي مهام الرجل؟ هذا ما سأله لنفسه، ألا يحق له أن يسأل نفسه؟ طبعا يحق له، سيقولون ذلك، لكنهم أيضا سيقولون بأنه مجنون ابن مجنونة، ثم يدخلون شرنقاتهم ضاحكين، مترقبين بشغف الدخول في فروج نسائهم. منذ أربعين سنة عجاف ساقه ما ساقه إلى هذه البلاد، تعبت عيناه من السراب، تشقّق جلده من حرارة شمس لم يعرف لها مرة واحدة موقفا حنونا. هجرته الحياة وهجر هو الحياة مرغما، فقد قال شيخ الجامع الناعم اليدين: "لا تطمع فيما لا رجاء منه ومن لا يريدك يعفيك من همّه." الجنّة لم تكن مرتع طفولته، طفولة مرّت كأنها لم تأت، هي بالنسبة له مجرد سنوات كان فيها حجمه صغيرا، مع ذلك كان في حاجة لبذل مجهود كبير ليبقى بلا جروح في وسط كلّه ينزف. كان الوقت مليئا بالفتك والهتك. كان العبور سليما مفخرة ونجاح، لهذا لم يكن هناك طفولة كما قرأ عنها لاحقا عند استراحة المحارب. السماء تمطر في الشتاء. السماء تحرق في الصيف. هم يصنعون الساعات لأنهم يقسمون وقتهم إلى ساعات يقضونها في قضاء أشيائهم، أما أنا، نحن هنا في اللهيب المستمر، لا جدوى للساعات، لذا لا نصنعها، لأننا

لسنا في حاجة إليها. هل هو الزهد في الدنيا؟ أم أننا خراء الأرض، تخجل منه الأرض؟ الأطفال يهرمون، لا أقول يكبرون، لأن الكبر يحمل معه زمنا يكفي للنضج والاستواء في الحياة، أما الهرم فتفسخ وتحلّل كريه، لذا أقول نحن نهرم منذ ولادتنا. لماذا تأتيه هذه الأفكار السوداء الآن؟ يقترب من نافذة البيت الضيقة، المسيّجة بحديد لم يتم طلاءه أبداً، لقد بدأت رياح القبلي مسلسلها السنوي، تذكرنا بحالنا منذ أزمان سحيقة. كيف قرّرت قبيلة ليبية قتال القبلي، ذهبت إليه في داره لكنها لم ترجع؟ يكفيها أنها ذهبت إليه لمقاتلته، ربما لم تنته المعركة. ربما كان كل السنة سيضربنا بحره وعذابه. أحييك أيتها القبيلة الشجاعة، أحييك أيتها النفوس التي لم تستطع الاحتمال أكثر. أحييك أيّتها الأيدي التي امتدت إلى الصحراء لتقتلها. أحييك أيّتها الأقدام التي زلزلت رمال الصحاري ولم تتوقف مكانها. أحييك أيّتها العيون التي لم تلتفت لترى الماء، كانت تعلم أنه ملح أجاج ولا نفع فيه، لم تكن ساذجة كما هي الآن، أو ما يبدو أنهم أحفادها. يا للهول إنني أرغب في نوم لا يحتويه النواح، في نوم بلا صراخ، نوم بستائر وردية ناعمة، نوم بأحلام باردة. حين جاء إلى الدنيا، لم يعرف طوال حياته التي لم تتجاوز الأربعين سنة سوى شوارع وأزقة، ودوائر حكومية. كثيرا ما أعجبته فكرة تسمية مباني الحكومة بالدوائر، حيث لا بداية ولا نهاية، كأنها تنتمي لتاريخ متخيل. زمن متخيل مغلق على ذاته. أقصى مسافة قطعها كانت الطريق إلى بنغازي حينما تقدم لامتحان القبول في كلية الحقوق التي لم يدخلها على أي حال. وصلها ليلا، في حافلة قديمة بالمعنى الواضح للقدم. الركاب الآخرون لم تسترح نفوسهم إلا بعد أن شغّل السائق جهاز

التسجيل وبدأ على الشعالية في الغناء، عندها أخذت الألسن تردد معه الكلمات متبوعة ب: "ياحسرة." لم تكن هناك امرأة واحدة في الحافلة، حديد يحكُ في حديد مثلما علّق راكب كان يجلس بجانبه، رائحة فمه خليط من الحلبة والثوم. أصرّ الراكب على أن يقترب منه ليصب في أذنه مجموعة من التعليقات الإباحية. كانت ملابسه مدعوكة لكنها نظيفة، لا شك أنه أشتراها من سوق التركة، يعني حتى هو فقير زيي.

لم يعد يفكر في رائحة الثوم، بعدين خيره الثوم ماهو دوا لكل شيء. آمتى تكون زوالي تبقى متحف لكثير من الأمراض. مرت بذاكرته مجموعة الأمراض التي أصابته، من العوّاية وحتى النمنم. كنت تعرف البيوت التي فيها أطفال مرضى، كانوا يعوون. تبسّم رغم كل شيء. لا بأس الدنيا ماشية واللي عظمة صحيح يقعد واللي عظمة رهيف، معلول يرفعوه على الكتاف من غير دوشة. الدنيا ما تتحمّلش الوقوف والانتظار، هي لا تنتظر أحداً ولو كان بوه ملك. يردد علي الشعالية بصوت عال: نور عيون قابلني عضى

شاطط نار الحب ما ينفع دوا. تذكر صديقه ورفيقه الدحّاي وشن يصيرله بعد ما يدْلحْ مازانه عصيّرة كان يصرّ على أن يغني بصوته المشروخ أغاني الهوانه، يقول له المصروب ساداً أذنيه:

" هذا يبي بيتسة وانشاء الله يصير منه"

يلكزه الدحداحي هامساّ:

"عيب عليك، الراجل منسجم، ماتفسّدشْ عليه، كان مش عاجبك دير زيّه لكن أنت قرجوطتك كامردالية أوطّانطا"

نقرقر ضاحكين ويتوقّف الدحّاي لاعناً جد جد بونا، معقبا

"أنتم ماتقدّروش الموهبة، توّا تشوفوا كان ماغنّيتش في الإذاعة وتبدوا تتجدّوا فيّا باش نغنّيلكم"

الأشجار والحصى تجري للخلف سريعاً من نافذة الحافلة، يقفل عينيه، يتنهد قائلا:

"وينك يا دحّاي؟"

"عندك معارف في بنغازي؟" سأله الجالس بجانبه.

أشجار الطلح القليلة على يسار الطريق، كانت قصيرة، نحيلة كأنها مكسورة الخاطر، ليس هذا أمرا مهما، لكن لماذا كانت منحنية تجاه الجنوب، قيل له وهو صغير السن أن الأشجار تصلي وعندما كبر عرف أن القبلة هناك في الجنوب، الأشجار تصلي، لذا فهي تولي وجوهها إلى الجنوب، ثم عرف أنها تولي وجوهها جنوبا لأن رياح البحر وملوحة الهواء لا تترك منها شيئا في الجانب الشمالي، تنحني لأن الرياح قوية. قال في نفسه:

"كلّنا ننحني، ننحني لبشر متسلّط، لخائن، لشخص نحبه، ننحني لفكرة، ننحني لأننا أحيانا يجب أن ننحني"

عند نقطة بعيدة تتقدم دوّامة رملية في البراح الموحش. تلوح كأمرأة تجاهد أن تلملم رداءها، تمنع من أن يفضحها، يعرّيها أمام الذئاب المتلصّصة، الثعالب التي قد تكون الآن قد دخلت

جحورها لتستكين ساعة أو بعض ساعة. اليدان ترتفعان إلى أعلى مدى، فارغتان، تقذف بهما ريح هوجاء. ينظر إلى الجالس بجانبه، يفاجئه وهو يضع اصبعه في فتحة أنفه، يتوقف الرجل في عينيه سؤال، هل يخرج إصبعه أم يتركه حتى يلتفت؟ هذا أنف معوّج في كل الأحوال، ما الذي يضيره لو تم تنظيفه؟

"لا شيء، لا شيء" قال بصوت يمكن لأذنيه أن تسمعاه.

شعر الآن بالرغبة الشديدة في التبول. أعضاءه التناسلية تحتقن، تحت السرّة شدّ، وضغط كبيرين، يجب أن يتبول. تطلع إلى مقدمة الحافلة، ناحية السائق، رأى بجانب السائق رجلا سميناً في الملابس العربية، كان جالسا على النتوء البسيط القريب من السائق، والذي لم يأخذ كل الإلية. كانا يضحكان بقوة فيم السائق يعطي السمين كأس شاي أو ربما قهوة، الذي يعرفه أنه لم يكن ساخنا جداً، لأن السمين شربه في فم واحد. نظر من خلال زجاج النافذة عن مكان يستره في تبوّله. ليس هناك إلا الفراغ الكبير. حتى في بولة حقيرة، لا ستر، لازم بشهودها! مدّ بصره سريعاً إلى وسطه، أطمأن لعدم وجود بقع ماء أو من أي نوع. وقف، متمهلاً، العجلة تفضحك، عليك بالتحمّل، تقدّم متمهلاً أيضا ناحية السائق الذي كان يراقبه من خلال المرآة.

"من فضلك وقّف لي."

زاد السائق من سرعة الحافلة ونظر إلى عينيه مباشرة في المرآة.

"شن تقصد؟"

"لو سمحت نبّي ننزل، نقضي حاجة."

"ما تقدرش تصبر؟ قال له السائق فيم زاد أكثر من سرعة السيارة."

الرجل السمين بدأ يضحك بصوت منخفض ثم قال للسائق:

"راهو يديرها هنا!"

أعطى ظهره للحافلة، شعر بعيونهم تخترق ظهره، ثم تنزل إلى خصيتيه.

"لعنهم الله."

قطرات البول الصفراء الداكنة تطير في الهوا، تسقط على حذاءه، كانت هناك عميقا في الجسد، تمارس وظائفها في الخلايا، ثم أليست أكثر من قطرات تقذف بها ريح في خلاء. ما الذي يجعلني أفكر هكذا؟ هل جننت؟

"لماذا أنا ذاهب إلى بنغازي؟ ماذا يوجد في بنغازي؟"

عصر بيده آخر القطرات، رفع سحاب البنطلون ورجع إلى الحافلة، ابتسم السائق في خبث، فيما سلط السمين بصره هناك في المنطقة الحرجة وقال له:

"استرحت توا؟"

لم يرد عليه، نعم ماذا أريد في بنغازي! بدأت الأشجار تقل على جانبي الطريق الذي مرّ منه موسوليني والملك إدريس، مر منه الصعاليك والقوادون والجيوش البريطانية والإيطالية.

بوشعيرة

منذ زمن قديم جارهم العجوز الذي كان دائما يبلّل شفتيه بلعاب لماع حكى له عن رحلاته لتوصيل البريد إلى الحكومة في البيضاء. عن الطريق الضيق مثل ثعبان. الرجل بعد تقاعده أصبح كتلة لحم متهتكة الحواف، فوق كرسي من خشب وضيع، لا يكف عن تجرّع حكايات مليئة بلعاب لماع ودخان سجائر رخيصة. لاحظ أن عينه على الجارة الجديدة الصغيرة العروس. يحك ما بين فخديه حين تمر صباحا ثم ينظر إلى السماء في غيظ لا يخفى. كان العجوز لا ينام إلا في ساعات الصباح الأولى، فقد أصبح الوقت بلا قيمة، هو يعرف أنه سيعبر إلى الضفة الأخرى في وقت ليس بعيد، هو يعرف أن عمره كله ليس سوى نكتة سخيفة، ما الذي أنجزه؟ عاش أغلب سنين عمره على هامش الحياة. من بائع للفحم والحديد في سوق الثلاث، آه كم كريهة تلك الرائحة المنبعثة من الفحم وخردة الحديد، كانت يداه تتشبعان بالرائحة، يسميها رائحة الموت. لم يكن بامكانه إزالتها من يديه بعد عودته إلى البيت الصغير في باب عكارة. حتى القاز ما ينحيهاش. كان يقول:

"الإنجليز أحسن من يعرف في الحديد، يا راجل الانجليزي لحمر الخدود آمتا تشوفه تقول لو تمسّه بصباعك يبزّ منّه الدهان، إيه إمّاله، ما ياكلوا من صغرهم غير في الزبدة والمرملاطة والبشكطّي، مش زيّنا إحني كان الواحد حاله باهي يحصلّه عبّود زميطة والاّ عبود عجين مخلّط بالتراب، يا سيدي الباهي من يومه لا يزبّط لا يدير خنانه."

كان عندما يتكلم يحرّك يديه ويضرب على فخديه بينما عيناه تراقب كل ما يحدث في الشارع، فهو على كل حال نستطيع أن نقول إنه يعيش في الشارع حتى ولو كان بيته الصغير لا يبعد أكثر من خطوات من دكانه.

الحاج بوشعيرة أيضا من كثرة تردّده على الدكان كأنه يعيش معه، فهو يأتي إليه بعد أن يكون قد فتح الدكان ومسح التراب وأزال الأوراق من قدام الدكان، ثم يملأ برّادة الماء من شيشمة البلدية قرب الساحة الصغيرة، يضع برّاد الشاهي على كانون الفحم، عندها يكون الحاج بوشعيرة قد بان من حاشية الشارع ويتنحنح بصوت عال حيث سيبادره على كالاميطة:

"آهو جت نجوى فؤاد"

فيرد عليه بوشعيرة ضاحكاً: "يا راجل تحشّم على روحك شنو مافيش جعرة، توّا لو كان واحد يسمعك؟ شنو يقول عليك، مهبول؟ بعتالي قولّي، زعمة أنت يوسف وهبي؟"

"والله ياحاج بوشعيرة راهوا طلعت مني من غير ما نندري، بعتالي، خيرها نجوى فؤاد، مش خادمة على روحها؟ يا ريتنا زيها، هيا قعمزْ وصلّي على نبيك، جيب الكوتي وقعمز عليه وتوّا نعطيك طاسة تفتح العين المغمضة إيه ايه ايه."

يجلس الحاج بوشعيرة على الكوتي الذي تركه يوم أمس ضامّا إليه أطراف جرده وهو يرتجف قليلاً، ينظر في وجه على كالاميطة فيرى سنوات طويلة من الفقر والشقاء. رجع عشرين سنة إلى أوّل يوم وصل فيه إلى هذا الشارع،

كان على كالاميطة أوّل شخص قابله، ابتسم له وهو واقف بجانب الشريول، قال له:

"وصلة وإلا ذاهب؟"

فرد عليه قائلا: "ازّوز!" فسأله: "بالفرد والا بالزّوز؟ يا راجل أني راهو مانفهمش فيك، شن قصدك؟"

"شورك مسكّر م الباكو، قصدي بروحك والا معاك عيلتك؟"

"بروحي بروحي وهلبة يا صاحبيّ".

طلب منه أن يصعد على الشريول لكي يريه طرابلس. البغل أشهب اللون وله بقعة بيضاء في مقدمة الرأس، رغم قصره، فهو يبدو قويا وأن صاحبه يطعمه جيدا. لم يسأله إلى أين يأخذه، فليدع الأمور تسير، فهي مسيرة والخطوات محسوبة. كان علي كالاميطة واقفا شامخا برأسه يقود الشريول، قال له والبغل يبذل كل جهده ليجر الشريول إلى أعلى الطريق:

"يا شنْ سمّاك ربي، أنت محظوظ اليوم لنّي مترونق وما عنديش مزاج في الخدمة، توا نورّيك البلاد، المدينة، بعدين ناكلوا مع بعض."

لم يردّ عليه، فهو لا يعرفه ولم يعرّف بنفسه أيضا.

قال في سره: "فيه منو يسيره"

ثم ضمّ جرده إلى جسمه، شعر بالدفء يسري ما جعله يبتسم وهو ينظر إلى الأمام.

"هذي السرايا الحمرا، كانت بتاع السلطان بتاع الترك، القرماللّي، الباشا، توّا معاش يسكن فيها حد، قالوا في الليل يطلعوا الغِولة والعفاريت. قالوا حتى غولة السلطان شافوها تمشي وتجي فوق سطح السرايا."

في قريته التي يلفّها الهندي من كل الجهات، تلسعها الريح من الحمادة الحمراء، لا فيه سلطان، لا غولة السلطان، الصخور وراءها لم تتكلّم، لم تخبر الناس الذين يقفون أمامها قبل أن تغيب الشمس كلّ مساء ينظرون إليها صامتين. الكبار الذين غادروها إلى طرابلس، أغلبهم لم يرجع. من رجع منهم اكتفى بقليل الكلام. في قريته النساء هنّ من يضع شكل الحياة،

تذكّر أمّه وأخته، تساءل هل هما بخير الآن. حين قال لهما بأنه ذاهب إلى طرابلس، لم يناقشا معه الموضوع، لكنهما جهّزا له كيساً فيه بعض الخبز والزمّيطة. في الصباح وضعت أمّه حول عنقه حرزا، طلبت منه ألا يخلعه مهما كانت الأمور، لم تتركه حتى حلف لها بكل مقدّس. بدأت رائحة فيها طعم الملح تدخل أنفه، رائحة طريّة عذبة.

"هذا البحر يا شنْ سمّاك الله، شفته قبل؟"

إذن هذا هو البحر! وهذه رائحته!

"تعرف يا شنْ سمّاك الله حتى أني آمتا جيت أول مرّة ماكنتش نعرف البحر ولا عمري ريته، كنت كلّ يوم، الصبح بكري نجيه، نسلّم عليه. توّا بعد سنين ما نشوف فيه حتى وأني خاطم بحداه. اللّي بحداك يطيح قدره لأنه بحداك. ما تفكّر غير في اللي بعيد، عجب يا صاحبي عجب!" تحسّس الكيس بجانبه، تذكّر الخبز وأنه لم يأكل منذ ساعات طويلة. أخرج فردة خبز تنّور، قسمها قطعتين، صغيرة أحتفظ بها لنفسه، الكبيرة أعطاها له.

"هذا الخبز الحقّاني، مش الدقيق اللي يعجنوا فيه توّا، يا دوب يسخنوه ويقولّك خبزة."

"تعرف يا شنْ سمّاك الله، هذي أحلى خبزة دقتها في حياتي. هذا سوق المشير، هذا بانكا روما، وين يدسّوا في الفلوس. جي وجاب الطليان، لعنة الله عليهم."

"قوللّي ربي يخليك، ما تعرفش مكان نقدر نسكن فيه، يكون رخيص هلبة؟"

رد عليه وهو يلوّح بسوطه عاليا:

"غالي والطلب رخيص، وحق خبزة التنور اللّي كليناها مع بعض الليلة ما تبات الا عندي، غدوة نرفعك وين تسكن."

قال له علي كالاميطة: "وين رحت يا حاج بوشعيرة؟"

ابتسم له في ود كبير، منه طاسة الشاهي. منذ أن تركته زوجته ورحلت مع البلغباشي القادم من شرق البلاد، أقسم بأغلظ الأيمان أنه لن يترك علي كالاميطة، فهو صديقه الوحيد، الذي لم يخنه أبداً. كان يتابع بدقّة كيف أن علي بدأ في الاهتمام بملبسه، يضع عطر البارازيت ويكثّر في ذلك، حتى أنه سأله مرّة:

"شن قصة هاالتفحفيح الزايد المدّة اللاخيرة؟" ردّ عليه: "شنو حرام التفحفيح؟"

قال: "لا بدّ أن المرأة هي السبب!"

بينه وبين نفسه فرح لصاحبه، الراجل مايبقاش راجل الا بالمرا. كان علي يضع شنّته الحمراء التي اشتراها من سوق الرباع مائلة قليلاً. مرّة قال له:

"الراس مايتغطاش كلّه والا ما يبقاش راس."

يذهب إلى ميدان الساعة، يجلس على كرسي خارج مقهى الزهر. يجلس وحيداً، يشرب قهوته وأصابعه تنقر على سطح الطاوله في قلق ظاهر. لكن عينيه تبرقان فجأة حينما تظهر تلك المرأة بفراشيتها البيضاء الناصعة، وهي تميل بتلّيكها الجلدي الوردي في غنج. ترتعش يداه حينما تقف أمامه قليلاً متظاهرة أنها تسوّي فرّاشيتها أو تمسح من عليها بعض الغبار. كان علي كالاميطة يبتسم، السعادة تملأ وجهه الذي لوّحته الشمس. شعر بضيق كبير نحوها، لم يفهم سببه، ودّ لو أن صديقه الوحيد لا تحطّمه امرأة مهما كانت، لا يريد أن يراه حزينا أو مجروح الخاطر.

ودّ لو يقول له بما يحسّ، لكن كيف ذلك دون أن يكون هو من يقطع قلب صاحبه.

فاكتفى بالصمت، فيه منو يسير فيها. لكلّ شي حكمة. نظر في اتجاه أول الشارع، بعض الأولاد الحفاة بدأوا في الظهور والجري وراء كرة ممزّقة، يضربونها بأرجلهم، يتدافعون بأيديهم وأرجلهم. ربما كان حفيده يلعب معهم الآن لو لم تهرب زوجته الفاجرة، لكن السنوات مرّت بهمومها الكثيرة دون أن تعطيه فرصة ليكوّن عائلة مثل بقية الناس. تساءل ما الذي فعلته لهم العائلة الذين تزوجوا، غير مزيد من الهموم! كان علي كالاميطة قد انهمك في اصلاح وابور الجاز، لاحظ كيف أن يديه بدأتا ترتعشان وأنه يأخذ وقتاً طويلاً في ادخال الإبرة.

"تصلّح في ابّابير الناس وبابورك واقف!" ملعونة الدنيا، ما فيه حد رابح فيها!

مسح شفتيه من بقايا الشاهي الثقيل، بصق بصوت خشن تبع بكحّة عالية، التفت إليه علي كالاميطة وضحك قائلا له:

"بابورك فوّز يا بوشعيرة، لو يحصل تسليكة بيبرة مرتين ثلاثة توّا حاله يتصلّح."

ابتسم بوشعيرة وهمهم:

"إيه يا صاحبي، حتى الصديد ركبه وشوكونية مايخشّش عليه!"

"ما فيش حاجة ما تتصلّحش غير القلب لسود يقعد ديمة أسود."

عدّل بوشعيرة من جلسته على الكوتي، قال بصوت عال:

"قوللي يا علي ليش سمّوك كالاميطة؟" وضع علي الإبرة على الطاولة المتّسخة، بيده وابور الجاز تفوح منه رائحة الجاز والدهن، التفت إلى بوشعيرة ودقّق فيه البصر، أخفى ابتسامة حاولت الانفلات.

"هاذي ليها قصّة، شنو ما حكيتهالكش؟"

حرّك بوشعيرة رأسه يمنة ويسرى.

"زمان، لما جيت من ورفلة، كنت صغيّر، يا دوب عمري عشرّ سنين، خشيت المدينة بروحي زيّ طير البربي، مشيت لواحد من جماعتنا كان يعرف سيدي قبل ما يموت، رحمة الله عليهم أجمعين، كانوا جميع في العسكرية، حاربوا مع بعض في برّ الحبش. سماه الميلودي.

كان عنده دكان يبيع ويشري، قاعد معاه في الدكان، في الليل نبات فيه وفي النهار ندوّر في خدمة. كان عمي الميلودي مسكّن خاله في الدكان، راجل شيباني تلب، عيونه بلهون لكن لسانه زي الموس، مرّات كان الميلودي يجيب في شكشوكة والا زميطة، كنت من الجوع والصغر ناكل بسرعة، طبعا بالنّاصر خال الميلودي بشبحه الضعيف ما كانش يحصّل معاي

شي في الماكلة. مرة قال لولد اخته الميلودي، شن ها الكالاميطة اللي جبتهانّه. منها سمّوني علي كالاميطة."

ضحك بوشعيّرة بصوت عال وقال:

"والله لو شافك توّا راهو سماك كالاميطة وجاز!"

ابتسم علي، مسح أنفه بكمّ قميصه المتسخ ثمّ قال:

"خليفة الدنجال روّح واللا مازال؟"

"هو مش عا المسموع قالوا حصّل طريحة من ولد العمشة؟"

أخد بوشعيرة برّاد الشاهي، أضاف إليه قليلاً من الماء وصبّ حفنة كبيرة من السكر، راقبه علي، قال له: "شورك مطوّل يا حاج؟"

ردّ عليه بعد أن وضع برّاد الشاهي على الكانون:

"قطّف يا كالاميطة، وين عندي نمشي؟ الدنجال قالوا يخدم في الزراعة بتاع الحكومة، بدي راجل عليه القيمة. قالوا يمشي للدواخل، حتى لفزّان يشبح في السواني والمزارع، أنت تعرف أنه كان شيطان الشيشة، لكن ربّك هو اللي يسيّر فيها."

"اليوم يا حاج بوشعيرة عشاك معاي، اليوم بنديروا حرايمي بالسردينة، باهي؟"

لم يردّ عليه، بقي صامتاً يتابع الأطفال يضربون الكرة الممزّقة.

الحدّاد

أوقف السائق السمين الحافلة قرب ساحة فندق النجمي، كانت الساعة الرابعة صباحاً أغلب الركّاب كانوا قد ناموا كلّ الفترة التي استغرقتها الحافلة من بن جوّاد إلى بنغازي، ما عداه هو، ظلّ مستيقظا يفكّر في أمور كثيرة، أهمّها كيف ستكون حياته في بنغازي، هل سيتقبله ناس الشرق، لكن الناس ناس، كلّنا ليبيين كان يقول مطمئنا نفسه. كلّها أربعه سنين ويروّح بالشهادة الجامعية، سيكون وكيل نيابة وليس محاميا. كان الميلودي يقول له قبل أن يتقدم للجامعة:

"يا حدّاد الشهادة مش آخر الدنيا، بروحها لا تقدّم ولا توخر، ورق وحبر، لكن تعطيك القانون فيدك، تقدر بيها تكون راجل."

عندما صرح للميلودي عن تردّده في دخول كلية القانون، قال له الميلودي وهو يمسح شاربه الصغير وينظر إلى البعيد، إلى الفضاء الفسيح فوق السرولة قدّام الدكان:

"يا حدّاد يا ولدي كلّ شيء في ها الدنيا باللّي فيها حيّ وميت راهو ماشي بالقانون، أنت بتاخد القانون في إيدك، بيسيل مع حبر البينّة بتاعك، آما احسنْلك تكون صاحب القانون والا لا؟"

عندها تنحنح بالناصر خال الميلودي من فوق الركّابة، فقال له الحدّاد بصوت معتذر:

"سامحني يا عمّي بالناصر راهو والله ما ريتك. هاذا علاش ماسلّمتش عليك."

"كيف حالك، انشالله الكحّة نقصت."

"نا مسامحك يا ولدي، عارفك مشغول، لكن بنقولك، خود كلام عمك الميلودي."

"احني منو عندنا غيره، والله يا عم بالناصر، حتى بوي ما نشاور فيه زي عمي الميلودي."

اعتدل الميلودي في وقفته، ظهر على وجهه السرور، فتح زجاجة رانجاتا، أعطاها للحدّاد الذي باغتته هذه الحركة من الميلودي فهو لم يفعل ذلك أبدًا مع أي واحد من المتردّدين على الدكان. أخذها منه وشكره بحرارة واضحة وصادقة، فهو يحتاج إليها ليبرد الصهد في صدره.

"يا حّداد كان خشيت القانون صير وكيل نيابة مش محامي، اللي يهجم أقوى من اللي يدافع، العسكرية علّمتنا اللّي يهجم هو اللّي يربح، الدنيا هجوم ودفاع. فكّر بالشويّة عليك وشوف." تلك الليلة لم يستطع النوم. في الصباح جاءه الدحّاي، صاحبه ورفيق الشلّة، أخبره أن المصروب في حالة طيبة وهو ينتظرهما أمام مقهى الدوكالي. لم يكن بوسعه أن يخبره عن قلقه وأرقه فقد كان معروفا عند الجماعة أن الدحّاي ما يدسّش الدوّه. طلب منه الدخول وعدم الاستعجال قبل أن يشرب الشاهي وياكل طرف خبزة. جلس الدحّاي فوق المندار الرقيق الأزرق وطاسة الشاهي في يده يشربها بتلذّذ، ثم سأله:

"آمتا بتمشي لبنغازي؟"

"بالك بعد يومين!"

"لازم تقولنا باش انديروا تقعميزة خاصّة"

تبسّم وعيناه مصوبتان إلى عيني الحدّاد، فهم منه المعنى وهو أيضا يريد ذلك فمنذ مدة لم يذهب إلى شارع كِندي. خرجا معا، اتجها ناحية مقهى الدوكالي حيث لمحا المصروب جالساً على طاولة لوحده وبين يديه جريدة كأنه مستغرق في القراءة، فلم يلحظهما حتى وصلا إليه.

ودّعه السائق السمين ضاحكا بصوت فيه خنّة وسخرية تمنّى له الاستمتاع في بنغازي

"غير راك تشخْ على روحك!"

دخل صالة فندق النجمي، هي عبارة عن صالة صغيرة لا تتعدى مساحتها عن 2متر في2متر. ليس من أحد في البهو! تطلّع في أرجاء المكان، فرش أرضي مدهوك عالآخر لا يكاد يرى منه شي. صورة جمال عبد الناصر معلّقة على الحائط وراء الاستعلامات كذلك صورة للملك ادريس السنوسي بلحيته الكثّة البيضاء. لا يوجد سوى كرسي واحد خشبي مشوه بطلاء أزرق.

خرج رجل قصير القامة، مرتديا جبّة رمادية باهتة، ووجه غير حليق في عينه اليمنى بقعة بيضاء.

قال له: "حمد الله عالسلامة، كيف وصلتو من طرابلس؟ ما تعبّكمش السمين؟ الحمد لله عالسلامة، تبّي غرفة بروحك؟ واللا بتشارك؟"

"قداش بروحي وقداش بتشارك؟"

"بروحك بجنيه من غير فطور وبتشارك بخمسين قرش من غير فطور."

حجز غرفة بجنيه في اليوم. ستكون الغرفة له فقط لا يشاركه فيها أحد. بعد أن وضع حقيبته التي أعطاها له خليفة الدنجال فوق طاولة متّسخة قرب الباب، نزل إلى البهو حيث وجد الرجل القصير يشرب الشاهي الأخضر، شاركه طاسة ثم سأله عن كيفية الوصول إلى الجامعة، فلم يتردّد في توجيهه بأقصر الطرق. الساعة الآن السابعة صباحاً، طلبوا منه الحضور إلى مكتب مسجل الكلية الساعة العاشرة صباحاً، ساعتان كاملتان عليه أن يقضيهما في مدينة لا يعرف فيها أحد.

أمام الفندق مقهى مكتوب عليه مقهى الساحل، ليس فيه سوى طاولتان من خشب أكل عليهما الدهر وشرب، جلس على الكرسي القريب من الباب

"شاهي والا قهوة"، سأله العامل النحيف البنية،

"شاهي الله يرحم ولديك."

طعم الشاهي مختلف أو هكذا بدا له. باله مشغول بالمقابلة وبأمّه التي تركها في طرابلس. رشف الشاهي بلا استمتاع وخرج إلى الطريق المترب التي يحفّه صف من دكاكين بائسة. هل هذه هي بنغازي ربّاية الدايح زيّ مايقولوا؟ لو تمّ قبوله سيبقى فيها أربع سنوات هذا في حالة ما نجح كلّ سنة! ما زال طعم الشاهي يعطيه في معدته احساس بالغثيان، خاف أن يتقيأ في مدينة لا يعرف فيها أحد. الشمس أخذت مستقرها في سماء خاوية، تلفّه وحشة كبيرة خانقة. اقترب من مبنى كبير. إذن هذه كلية الحقوق، دخل الممر القصير الضيّق،

سأل أحد الموظفين الذي دلّه على قاعة المقابلات. بعد ذلك بدأ الطلبة يأتون وأصبح الممر مكتظا بالطلبة.

تأمّل ملابسهم ووجوههم، لم يجد فرقاً بينهم وبينه، الفقر لا يفرّق بين الناس. تحسّس ورقة العشرة جنيهات في جيب الجاكيت الداخلي. ابتسم شاعراً بالارتياح لوجودها معه، حين سلّمها له الميلودي عندما كان يغادر الدكان، تذكّر العشرة الجنيهات التي وضعها الميلودي خلسة في جيب المصروب حينما انضمّ إلى معهد الشرطة.

ابتسم ثانية وقال: "ينصر دينك يا ميلودي."

إنه يحنّ لأصدقائه في طرابلس، لكنه لن يخذلهم أبدا. قالوا له ليلة سفره إلى بنغازي:

"ارفع راسنا لفوق يا حداد، خليك أول واحد فينا يتخرج من الجامعة."

تلك الليلة لم يحضر الميلودي. قال المصروب:

"تعرفوا يا جماعة، الميلودي قلبه رهيف، زي ورقة البافرا، ما يتحملش التوديع، على خاطر ما يقدرش يتحكم في روحه، عيونه يدمّعوا، وما يبيش حد يشوفة يبكي."

رفع الدحّاي زجاجة البوخة وقال ضاحكا:

"هذي للميلودي البكّاي، فكّ علينا يا مصروب! صبْ العصير طاسطي نشربها، نقتل عليها خوي ما نسيّبها."

انضم إليه في الغناء المصروب والدنجال ومختار الزرباز. لم يشرب معهم تلك الليلة، لم يطلبوا منه أن يفعل. فتح الزرباز الراديو الذي يحمله دائماً معه أينما ذهب وبدأ في تحريك مؤشر الراديو.

تساءل الدنجال: "فاش اتدوّر يا زرباز؟"

ردّ المصروب ضاحكا: "يدوّر في بيج بينج باش يعدّل الساعة."

دقّت ساعة بيج بينج مرتين وسكتت، قال الزرباز في غضب:

"آهو راح الكيف! ما لحقتش عليها كلّها."

نظر في ساعته بعمق وقال بفخر:

"عمرها ماقدّمت ولا وخّرت. ساعة هيرما ديلوكس" وأقفل الراديو بحنان.

دخل القاعة، في آخرها طاولة كبيرة جلس خلفها ثلاثة رجال، لم ير مثلهم سابقا، عليهم هيبة ونظافة واضحة. قد يصبح مثلهم عندما يتخرّج من الجامعة. طلب منه أحدهم الجلوس على الكرسي الوحيد الشاغر. سأله الرجل، الذي يبدو أكبرهم سنا:

"ليش تبّي تخش الحقوق؟"

"باش نوّلي وكيل نيابة"، أجاب دون تردّد.

"علاش تبّي تولّي وكيل نيابة؟"

"لأن وكيل النيابة في إيده القانون يتحكم فيه"

ثم أردف سريعا

"للصالح العام، يحمي الحق العام، والحق عندما يموت يحتاج إلى حماية."

سكت شاعراً أن جبهته امتلأت بالعرق، خاف أن يحسّوا أنه ضعيف أو...شكره رئيس اللجنة وأبلغه أن النتائج ستظهر في نهاية الدوام. تلقّفته الطريق المعبدة تاركا وراءه المبني ومن فيه، في نفسه خوف كبير من ألا يُقبل. كيف له أن يقابل الميلودي وأصدقاؤه. لا يمكنه ذلك. المطعم أيضا صغير، أختاره لأنه لا بدّ أن يكون رخيصاً، فالأشياء كما هي شكلها الخارجي، الغالي شكله غالي والرخيص شكله رخيص. طلب وجبة فاصوليا وكرشة واستغرق في الأكل كأنه لم يأكل في حياته. لم يصدق حين قرأ اسمه من ضمن المقبولين في الكلية.

الليلة إنبات في طرابلس.

الميلودي

الشاويش مخلوف بونوارة من ترهونة أخبرهم بأن يعدّوا أنفسهم للرحيل، ربما تكون لمدّة طويلة، قال لهم: "العسكري لازم ديمة يكون مستعد يا حزمة الكرناف."

الميلودي لم يخف قلقه وخوفه للريّاني، صاحبه.

"زعمة يديروها ويرفعونا لبّر الحبش؟"

ردّ عليه الريّاني: "العسكري ما يسالش ما عنداش قول مع الزبّاط."

لم يتابعه الميلودي فقد كان مشغولا بأمر مهمّ. كان يسأل نفسه عن شرعيّة قتل الحبش لو كانوا مسلمين. الجوع كافر، يكفّر الانسان. لو كان الأمر بيده لما انضمّ للطليان، لما لبس شلاتيتهم مثل ما كان يسمّيها. تذكّر عديد المرات التي ساعد فيها إخوته الليبيين وأنقذهم من بطش الطليان. كان يقول للريّاني:

"صحيح احني خشّينا مع الطليان، لكن نقدروا نحاربوهم واحني فيهم."

"نوض نظّف بندقتك، ما تعرفش آمتى يقولونا هيّا؟"

بدءا معا في تنظيف بندقيتيهما صامتين، لاحظ الريّاني أن جفن الميلودي يرتعش. هذه علامة يعرفها جيداً حين يكون الميلودي غاضباً. ناما قلقين أو لعلهما لم يناما حتى الفجر عندما نهض الريّاني يؤذّن لصلاح الصبح.

راقبه الميلودي ضاحكاً وهمس قائلاً: "توّا ينفع بيك!"

أمرهم الشاويش مخلوف بونوارة أن يصطفّوا صفوفا منتظمة بكامل العدة، علّق الريّاني بصوت منخفض:

"العدّة صلّى عليها الحوت"

ضحك العساكر القريبين منه. نظر إليه مخلوف مهددا.

"يا حزمة الكرناف، اليوم بنمشوا وممكن ما نوللوش بكّل، الحياة بيد اللي خالقها، أني سمعت الزبّاط الطليان يقولوا بياخدونا لبرّ الحبش، والله ما نبّي نمشي لكن العسكري يطيع، وقالوا بيجيبوا عسكرية الحبش لليبيا."

علّق الريّاني هامسا: "زرزورين برشادة، اللي يموت غادي، اللي يموت هنا مش طلياني، يلعن دينهم!"

"شوفوا يا حزمة الكرناف، خليكم إيد واحدة وقلب واحد، ما عادش فيه زاوي والا ترهوني و..."

انطلقت ضحكات من الصفوف.

المصروب

دخل المصروب مبتسما كعادته وهو يزرّر معطفه الذي أحضرته أمّه له، كان فخوراً به، يقول لنا:

" صوف انجليزي مش الدوك المعفّن."

لم نسأله من أين أحضرته أمّه وكيف. كانت هناك أشياء لا نسأل عنها، خوفا من أن المعرفة قد تصيبنا في قلوبنا بجرح يصعب بريانه، كأنه اتفاق غير معلن. جلس المصروب على الرّكّابة، الانزعاج على ملامح وجهه. تظاهر أنه يراقب السيارات المارة. أخرج كتاب الأربعين. هذه تسميتنا للكارطة التي كان يتقنها المصروب. لم نلتفت إليه مما جعله يتململ في مكانه على الرّكّابة، يحدجنا بنظرات معاتبة متسائلة. قلت له باسما:

"تعالى يا مصروب اسمع قصّة مشيَتْ عمّك الميلودي لبرّ الحبش."

لَوَى وجهه واقترب منا، وضع كتاب الأربعين في جيبه وجلس بجانبي.

قال الميلودي:" تاريخ وفات، واللي فات مات."

كنّا نعرف هذه الخصلة في الميلودي، علينا أن نطلب منه ونلحّ في الطلب.

"تاريخ عشته أنت، وعرفته لكن احني ما نعرفوشّي، نبّوا نعرفوه"

قال المصروب وهو يغمز لي بعينه:

"باهي وبعدين شن صار؟"

"شن صار في شنو؟ آه، يا سيدي، بعد ما كلّمنا الشاويش مخلوف، شعرت بالتعب الشديد، خفت انطيح فسط الجماعة، اتّكيت على بندقتي، قلت للريّاني ردّ بالك مني."

-"لازم من الشمس" قال المصروب.

"والله يا ولدي لا شمس ولا يحزنون، لكن القلب كان معيّي، آمتا يتعبّى القلب ما يقدرش يتحمّله الجسم."

سمعنا همهمة صادرة من داخل الدكان، عرفنا أنها من بالناصر، فهمنا أنها علامة احتجاج على حكاية الحبش. كان بالناصر يحب الاستلقاء بجانب شكارة الكاكاوية. الدنجال مرّة فسر لنا: "الكاكاوية تدفي البطن، تكثر الغازات، لهذا هو ديمة يقعد بعيد. غازات تطيّح طيّارة موسيليني!"

تنحنح الميلودي بصوت عال، وضع إصبعه الصغير في فتحة أنفه، هذه حركة ملازمة له، خاصة في لحظات الانفعال الزائد:

"بقينا في الساحة من الصبح الى بعد صلاة الظهر. مافيش واحد فينا تكلّم مع الاخر."

"طلعتوا من سيدي الشعاب في البابور؟" سأله المصروب.

" في فرقاطة، ترفع قبيلتكم كلّها!"

"قدّاش يرفع البحر!"

" يرفع الشر ويرفع الخير!""

"قول يا سيدي، جمعونا من كلّ النواحي، من كلّ القبايل، بِتنا بحدا سيدي الشعاب."

عندها خطر ببالي خاطر غريب، في تاريخ ليبيا الذي له علاقة بالخارج منذ القرطاجانيين وحتى حكومة إدريس، سيدي الشعاب عنده إيد في القصة، أذكر ليلة القدر منذ سنتين، مشيت مع الدحّاي والدنجال والمصروب، بعدين لحّق علينا مختار الزرباز إلى مزار سيدي الشعاب. مختار الزرباز جاء بعدنا لأن أمّه طلبت منه يرفع قصعة البازين بالفول للمزار، طبعا هو لا يستطيع أن يخالفها فهي امرأة قوية، لا تعرف البصارة. كنّا دائما نحب تطييب خالتي خديجة، أم الزرباز. قبل المغرب بقليل جاء خلق كثير من سوق الجمعة، من الهاني، من راس حسن، من زناتة، من خلوة الفرناج، من المدينة القديمة، من قرقارش، حتى من زنزور. أغلب الطرق الصوفية كانت موجودة. التسامح والفرح كانا علامة المكان. بعد أن فطرنا مع الجميع في الفناء، انضممنا إلى حلقة الشيخ بوسبولة شيخ الزاوية الكبيرة. كنت أنا والمصروب في الصف الأمامي نتمايل مع الإيقاع ونرفع صوتينا مع القصائد. كان مختار الزرباز يتابعنا من بعيد وعيناه مليئتان بالاعتزاز. سيدي الشعاب رافع الحجاب وطلاق المحابيس. حدّثني رجل من مصراتة، يعمل في ورشة نجارة، أن سيدي الشعاب وقّف الكاتربيل وكسّر سنونه عندما حاولت الشركة هدم جزء من المزار.

"زعمة وين بيج بين؟" سأل الميلودي، نظر إليه المصروب باستغراب ثم نظر نحوي وقال لي: " شنو ما يعرفش؟"

"خش للمستشفى، عنده بطنه توجع فيه"

"انشاءالله مش المصران الأعور! آه لازم نمشولة، نزوروه."

"عيشة بنت سالمة رادّا بالها منه، ما هي تخدم غادي."

لم نرغب في الاستمرار في سماع حكاية ذهابه إلى برّ الحبش، لذا وقفت أنا والمصروب وخرجنا

تاركين الميلودي وراءنا فوق الركّابة، ينظر في اتجاه زمن مضى وولّى.

السرولة العالية تهتز مع ريح فبراير الباردة.

خالتي خديجة

خالتي خديجة، امرأة قوية الشخصية، لا تختلط كثيراً ببقيّة النساء، فهي مشغولة أغلب أوقات اليوم، تخرج من الصباح الباكر ولا تأتي إلا بعد أن تكون الشمس قد بدأت تستعد للنزول، حيث تدخل بيتها المتكون من غرفتين، واحدة كبيرة لولديها الدحّاي وخوه مختار، وواحدة صغيرة لها. مستراح مربع الشكل في ركنه شجرة ليمون قمرية، في الركن المقابل لها حنفية الماء. منذ أن كنت صغيراً، أنا أعرف خالتي خديجة كبيرة وصلبة. حتى الرجال لا يتكلّمون عليها ولا يلقون بالكلمات البذيئة حين تمرّ، على العكس يطأطئون رؤوسهم إلى الأرض. كنت دائما أتساءل لماذا؟ أهو الاحترام أم الخوف. كان ابنها الأصغر خليل الدحّاي صديق طفولتي، كنا لا نفترق. حين أذهب إلى بيتهم وأقابل خالتي خديجة كانت تبتسم ابتسامة سريعا ما توقفها كأنها ندمت على فعل ذلك، ثم حينما أغادر كانت تقول لي:

"سلم لي على الطيّبة"،

تقصد أمّي. مرّة سألت أمّي:

"خيرها خالتي خديجة؟ ما تخالط في حد؟"

"الخلطة ما تجيب غير وجع القلب، خديجة ما فيش حدْ زيّها، البيوت أسرار يا ولدي."

ثم تنهّدت وقالت: "مرّات اللي ما تعرفاش خير!"

لم أسأل أحداً بعد ذلك حتى صديقي الدحّاي الذي كان يقضي أغلب أوقاته في بيتنا.

حكى لي المصروب أن الميلودي أخبره بقصتها:

"هذي أصلها من جهة مزدة، كانت متزوجة من راجل ليه القيمة، فارس، خش مع المجاهدين ومات، استشهد في المعركة. كانوا ولادها صغار، رفضت كلّ اللي يبّوا يتزوجوها. لكن ما قدرتش تقعد في البلاد، نزلت بصغارها لطرابلس حضنتهم وتخدم عليهم."

كان المصروب يحكي بحماس وإعجاب شديدين. ثم انحنى عليّ، همس في أذني:

"حتى الميلودي تقدمّلها وردّاته، لكن كان تقولّه اعطيني الدكان كلّه يعطيهولها. هذي المرا والا بلاش!"

أحسست كذلك بالفخر لأنني بالنسبة لها ولد الطيّبة!

الدحّاي

في ذلك الوقت، بعد خروج الطليان واستقلال ليبيا حدث حراك كبير في المجتمع، رجع ألاف المهاجرين الليبيين من مصر وتونس وتشاد والنيجر، أغلب المهاجرين من الجهة الغربية كانوا في تونس. بدأ الليبيون يحسّون بأهمية الوحدة الداخلية فسعوا لتحقيقها وأُعلنت المملكة الليبية المتحدة. تزامن ذلك مع مجيء الشركات الاجنبية، تنقيب وحفر، مما خلق أماكن شغل لكثير من العاطلين الليبيين. الجانب التعليمي أيضا شهد حراكا كبيرا، لأن الجميع يعلم أن لا طريق للتقدم والتطور الا بالتعليم، فانتشرت الكثير من المدارس حتى في الأماكن الصغيرة النائية.

الدحّاي رغم محاولات أمّه المتواصلة لجعله يستمر في الدراسة، لم يتعدّ الشهادة الابتدائية. كان شديد الاهتمام بملبسه، متابعا للموضة، التي كنّا نعرفها من خلال الأفلام المصرية. فريد الأطرش وعبد الحليم حافظ وأحمد رمزي. الشّعر عليه أن يكون قصيراً من الجانبين، طويلاً في أعلى الرأس، أن يفردّ إلى أعلى مع لمعان تقوم به طبقة رقيقة من زيت الزيتون. لا بأس من أن يترك خصلة أو خصلتين على الجبهة. هذا مقدور عليه، لكن ماذا عن البنطلون، القميص،الجاكيت، والمعطف؟ هذه كلّها أشياء تحتاج إلى فلوس وفلوس هلبة. مع ذلك تمكّن من التغلب عليها، بمساعدة أمّه! هي تعمل نظّافة في بيت أحد الأغنياء في المدينة. المناسبات الدينية كثيرة وآهو كله زكاة. البنطلون المصنوع في إيطاليا أو بريطانيا،

كذلك بقية الملابس تنتهي عند الدحّاي وبطريقة عبقرية لسالمة تتحوّل كلّها إلى ملابس أنيقة، جديدة، على قياسه. ماذا يفعل صاحب الابتدائية بهذه الملابس الأنيقة وتسريحة شَعر فريد الأطرش؟ الميلودي لم يخف انزعاجه من سلوك الدحّاي، كان يكرّر كلّما رآه متبخترا ببذلة جديدة:

"الراجل اللي يدير البذلة مش البذلة اللي تدير الراجل."

ثمّ ينهي تعليقه المؤلم ب: "عريان .. ولابس خاتم!"

كنا نرى الألم والغضب على وجه الدحّاي الذي أكثر ما يفعله هو أن يصرّ على أسنانه ويخرج معلنا أن عنده موعد مهم.

قال لنا الميلودي في لهجة حادّة:

"كان صاحبكم، ما تخلّوشي يريح، انصحوه، خلّوه يدوّر خدمة واللا يكمّل قرايتة، مش قاعد زي الهفك يتمستك بين الدار والطار."

أردّ عليه مازحاً: "طيش شباب يا ميلودي"

"نوض روّح! والله لو كان يلقّط العقابات خيرله، مش أمّه تخدم عليه!"

كلّ ما نعرفه عن مكان عمل خالتي خديجة هو أنه في منزل لضابط كبير في الشرطة، مدير إدارة مهمّة في وزارة الداخلية. هي لا تتكلّم عن طبيعة عملها إلا لأمّي. حاولت مرارا جرّ أمّي للحديث لكنها كانت تقول لي:

"العمل الشريف ما فيشي عيب."

ليس من وسيلة للمعرفة إلا أن أتولّى الموضوع بنفسي رغم إحساسي بأنه نوع من التجسّس، وأنه حرام وعيب! لذا وضعت مخططا للمتابعة والمراقبة، الساعة السادسة والنصف صباحا تأخذ الأتوبيس إلى شارع بن عاشور، ثم تشتري خبزاً من كوشة الجدي، وبالقرب من جامع سيدي عبد الغني تدخل إلى فيلاّ من دورين محاطة بحديقة جميلة. مرّة سألت الكوّاش عنها فأخبرني: "هذه خديجة، تخدم عند البيّ."

سدّد لي نظرات فيها الكثير من الشكّ. معلومات الميلودي لم تضف كثيرا إلى ما قاله الجدي: "البيّ هذا كان مع سيدي إدريس في مصر، أصله من الشرق، لكن بيقولوا إنه راجل باهي، يخاف ربّي! ممكن يولّي وزير في الحكومة الجايّة."

لم تشبع فضولي هذه المعلومات.

قرّرت أن أسأل خالتي خديجة نفسها واللّي يصير يصير! بدأت في التردّد على المكان، أولا من بعيد لبعيد ثم استطعت أن أحوز ثقة الكوّاش الذي سمح لي بأن أجلس أمام الكوشة. عرفت أنّ البيّ متزوج من إمرأة طرابلسية جذورها تعود إلى أحد الباشوات الأتراك الذين أتوا لغزو ليبيا وملكوا كلّ شيء. كذلك عنده ثلاثة أولاد، أكبرهم يدرس في مصر والثاني دخل الكلية الحربية في بنغازي أما أصغرهم فهو من عمري، يدرس في الثانوية. لاحظت أن حارس البيت قد جاء للكوّاش وتكلّم معه، لم أسمع ما دار بينهما لكنني اعتقد أن كان يسأل عني، ذلك من خلال النظرات التي وجهاها نحوي أثناء حديثهما. لم يقل الكوّاش لي شيئا، لكنني

لم أعد أتردّد على المكان كثيرا. ما استغربه الآن أنه كيف لم تلحظ خالتي خديجة وجودي هناك! ربما قد فعلت لكنها لم تشعرني بذلك. قالت لي مرّة وأنا في بيتها مع ابنها:

"يا ولدي عليك بقرايتك، هي اللي تنفع بيك"

لم تزد على ذلك، كنت قد فهمت الرسالة، أحسست بالخجل فهي فوق كلّ الشبهات بأيّ حال من الأحوال. الذي استفدته من تلك التجربة هو معرفتي بعالم آخر من الليبيين الذين لا يبعدون عن مكان سكننا أكثر من بضع كيلومترات، هذا العالم نظيف، برّاق وشبعان. سألت نفسي: "هل نحن ليبيين أم من جنس آخر؟ لماذا نحاط بالفقر، ننهض وننام بالفقر؟ هل هذا عدل؟ أم هي مشيئة الله؟ واحد شبعان، واحد جعّان!"

لم تجعلني هذه الأفكار أترك الصلاة وحضور الجمعة في الجامع الصغير القديم، لكنها جعلتني أشكّك في كلام خطيب الجمعة الذي يعدنا بالسعادة الأبدية في الجنة مع كامل ملحقاتها من حوريات يمكن أن ترى الماء في رقابهن واللاتي لا يعصين لنا نحن الرجال أمرا، انهار العسل والخمر والقصور المشيدة. أنا لا أشك في كلام الله العظيم ولا أفكر في ذلك فهذا كفر، حرام والعياذ بالله، لكنني أشعر أن الرضا بالفقر وعدم التفكير في إيجاد الوسائل للخروج من الفقر أيضا فيه درجة من الكفر والحرام. لم أكن حاسداً ولا حاقداً على الذين يعيشون في العالم الآخر النظيف البرّاق، نصيبهم صنعته لهم الظروف، عليّ أن أصنع نصيبي بنفسي. قررت أن أتحصّل على مجموع عال في الثانوية وادخل كلية الطب. أخبرت الميلودي بقراري هذا فلاحت ابتسامة كبيرة على وجهه وهو يدفع بطاسة الشاهي نحوي:

"هو اللي خشّوا مش خير منك، على بركة الله يا ولدي، طويسة من القلب"

كانت بالفعل طاسة شاهي من القلب فقد كانت فائقة الروعة، اللي من القلب لا يمكن تزييفه.

المصروب

"داروها الكلاب"

قال المصروب وهو يقترب من دكان الميلودي على وجهه يلمع العرق وعروق رقبته بارزة.

كنت أنا والميلودي جالسين أمام الدكان على الرّكّابة. كان الوقت قبل العصر، بالناصر في السقيفة في سابع نومة لأننا نسمع شخيرة.

"غير شن فيه يا مصروب؟"

"الكلاب من همّا؟"

"اسرائيل وبريطانيا وفرنسا"

"خيرهم؟"

"ضربوا مصر، يبّوا يطيّحوا خشم عبد الناصر، لكن السمي أقربلهم."

التقت نظراتي مع نظرات الميلودي، كنّا نسمع أن هذه الدول تناوش في عبد الناصر على قناة السويس وموضوع إسرائيل، لكننا لم نتوقّع أن يحاربوا مصر.

"ترا افتح الراديو خلّينا نسمع صوت العرب"، صاح المصروب وهو على وشك البكاء.

كان أحمد سعيد بصوته الجهوري يحرض العرب والمسلمين للردّ السريع على الكَفرة والمستعمرين. تلا ذلك الأناشيد الحماسية والبطولات التي سجلها المقاومون البواسل.

"والله يا عمي الميلودي لو نقدر اليوم نمشي لمصر، لكن مش عارف كيف، هذا حارقني."

رد الميلودي على المصروب الغضبان بهدوء أدهشني:

"الشجاعة شيء والعقل شيء آخر، توّا لو امشيت شن تقدر إدير غادي؟ باش بتساعدهم، بالدّوه؟"

"باهي نقعد ناكل في روحي؟"

"لا، لكن تقدر تنضم مظاهرة وتطلعوا في الميدان، تقدر تنضم حملة مساعدات للمصريين."

"باهي سامحوني نبّي نمشي ندور الحدّاد وخليفة"، ثم وجّه بصره نحوي، قائلاً بلهجة عتاب:

"نوض معاي واللا عاجبك الحال!"

خرجنا سريعا، اتجهنا إلى بيت الحدّاد. عندما التفت ورائي كان الميلودي يقفل باب دكانه على بالناصر الذي في سابع نومة.

لم نجد الحدّاد في بيته ولم نجده في بيت الزرباز الذي قالت لنا أمّه بأنه خرج ولا تعلم إلى أين.

كان الغضب قد بلغ درجة كبيرة من المصروب فصار يضرب بيديه الهواء كأنه يصارع فارساً لا أراه. ازدادت حركة الناس في الشوارع كلها تسأل بعضها عن الكلاب إسرائيل وبريطانيا وفرنسا الذين ضربوا مصر وعبد الناصر. أصبح عدد الناس كبيرا فانخرطنا في الصفوف التي بدأت متوجهة لميدان الشهداء، رأيت الحدّاد من بعيد في أول الصفوف على كتفي أحد الأشخاص ويديه تلوحان في الهواء يهتف بصوت عال: بالروح بالدم نفديك يا مصر، بالروح بالدم نفديك يا ناصر. تردّد وراءه الجموع هذه الهتافات، تردّدت قليلا قبل أن أرفع صوتي

هاتفا معهم بالروح بالدم نفديك يا مصر. كان المصروب سعيدا الآن وهو يهتف بأعلى صوته، قلت له:

"هيا نمشوا للحداد صاحبنا"

جرينا عابرين الصفوف حتى وصلنا الحدّاد الذي لمحنا وابتسم لنا رافعا يديه الاثنتين إلى أعلى ما يستطيع:

" بالروح بالدم نفديك يا ناصر، تسقط إسرائيل وأذناب إسرائيل."

على بعد عدة أمتار كان الميلودي يمشي وسط الصفوف صامتاً، لا يلوح بيديه في الهواء مثلنا جميعا. كان حزينا أكثر من أيّ واحد منّا، يهز رأسه يمنة ويسرى بحزن واضح. سألت نفسي: "من منّا على صح، نحن الذين يهتفون أم هو الصامت الحزين؟" الآن أعرف أنه كان على حق. كان ميدان الشهداء حين وصلنا إليه مليئا بالناس الغاضبة، كان البوليس يطوّق المكان بأعداد كبيرة. لكنهم لم يحاولوا أن يقتربوا كثيرا من المتظاهرين. كان يمكنك أن ترى في أعينهم الرغبة في المشاركة. كنت سعيداً، كذلك المصروب بسماع خطبة حماسية نارية من صاحبنا الحدّاد الذي لعن فيها سنسفيل إسرائيل وبريطانيا وفرنسا وكلّ من يساعدهم من الحكّام العرب الخونة. الميلودي لم يبدو عليه أنه يتابع ما يقوله الحدّاد فقد استمرّ في هز رأسه يمنة ويسرى في حزن شديد. قال المصروب:

" ما العمل يا عالم؟" ثم بدأ يهتف بصوت قوي:

"بلادي، بلادي لك حبي وفؤادي"

ردّدت وراءه الجموع الغفيرة في نغمة سالت الدموع من عيون كثير من الناس وأنا منهم.

الميلودي قام، نظر حواليه وغادر المكان. استمرّت الخطب والهتافات حتى المغرب عندها بدأ الإعياء يتغلّب على الناس الذين بحّت حناجرهم وبدأوا في مغادرة المكان في صمت. رجعت أنا والمصروب والحدّاد. طوال الطريق كنت أفكّر في سلوك الميلودي الذي بقي صامتاً وغادر حينما بدأوا في الغناء. كذلك لم يتكلّم المصروب ولا الحدّاد. عندها بدأت في طرح العديد من الأسئلة على نفسي في أمور غاية في الأهمية. كلّ واحد منا ذهب إلى بيته ولا حتى السلام عليكم. في غرفتي لم يتوقف أحمد سعيد عن كلامه الناري وتأكيداته بأن النصر لنا لا شك في ذلك وأنه يراه رأي العين، أن يد الغاصب والكافر هي السفلى. أتى الصباح، كأنه لا يريد المجيء، منهكا لا أستطيع رفع يدي، صوتي مبحوح، قلبي مجروح، لم انتظر الشاهي ولا كسرة الخبز، جريت سريعا إلى دكان الميلودي الذي وجدته جالسا فوق الركّابة يحرك التراب بعود صغير في يده.

"كيف حالك اليوم يا ميلودي، وشن أخبار الحرب؟"

"ما شفتش المصروب اليوم؟"

"لا، شن صارله؟ علاش تسأل فيّا؟"

"ما روحّش البارح لحوشهم، خوه جي يسأل عليه من الصبح!"

"بالك مشي للمركز، لخدمته."

"بالك!"

استمرّ الميلودي في نبش التراب بالعود صامتا، كنت مشغولا على المصروب وشعرت بأنه لا يرغب في الحديث، ليس هناك كلام يقال. قمت، غادرت، في رأسي أسئلة كثيرة، أهمها أين المصروب. هل؟ حاولت أن أطرد الفكرة من رأسي فلا يمكن أن يكون قد فعلها! التطوّع للحرب مع مصر. فهو بوليس! وجدت نفسي واقفا أمام مركز البوليس الذي يعمل فيه المصروب، الحركة غير عادية، هناك أعداد كبيرة من البوليس يدخلون ويخرجون من المركز. اقتربت من المدخل رأيت رجل بوليس كبير السن، سألته بصوت مرتعش عن المصروب إن كان موجودا، رد قائلاً بأن الضابط يسأل عنه منذ الصباح، فهو لم يحضر لتوكته. أين يمكن أن يكون ها الدعوة! توقّفت عند مقهى الغزالة شربت فنجان قهوة بلا طعم واستسلمت لهواجسي التي أبت أن تغادر نفسي، هل يكون قد فعلها؟ أغلب الشوارع التي مررت بها كان حضور البوليس فيها ظاهراً بشكل لافت. قرّرت الرجوع إلى البيت فليس هناك مكان آخر. في شارع الجرابة قابلت الزرباز واقفا أمام مقهى العلواني يدخن.

"شفت المصروب؟"

"خيره، شنوا راح؟"

"البارح ما روّحش لحوشهم وخوه يدوّر فيه والضابط يدوّر فيه، زعمة وين مشي ها الدعوة؟"

"تشرب قهوة؟ وإلا غيرت على الشاهي؟"

"توّا وقته يا زرباز؟ مشنوق وباله في الحلوى!"

"باهي خود سبسي كرافن ترتّح بيه أعصابك."

"أني ماشي ندوّر عليه، هيا السلام عليكم."

"تِغِير راجي يا حصلة، أني جاي معاك، هذا ما يجي منه غير النكد."

"قولي انت شنو اتدير هني؟ خدمة وإلا قدمة؟"

"انراجي في حبّي يا حبّي."

لم أستطع الاستمرار في الحديث مع الزرباز الذي ظهر أنه غير مبال باختفاء المصروب صاحبنا. آمتى الصاحب تلقاه، في الجنة! لحق بي الزرباز معتذرا عن كلامه وقال لي أنه يعرف مكان المصروب. لوّح بيد لشخص لا أراه، قد يكون الجو بتاعه، ابتسمت في داخلي لفكرة أنني هو الزرباز وليس هو. حان وقت صلاة الظهر وددت لو نذهب إلى أقرب جامع لأدعو الله ألا يصاب المصروب بسوء، لكن الزرباز لا يصلي وهو يعرف مكان المصروب.

رأيت خو المصروب قادما نحونا، وحين وصل عندنا بادرنا قائلا:

" المصروب في بنغازي"

ضحك الزرباز بصوت عال وهو يردد:

" احني كنا ماشييله" التفت إلي " شن رايك توّا، تبّي تمشيله لبنغازي يا مهبول؟"

لم أفهم السبب الذي جعل المصروب يسافر إلى بنغازي إلا تلك الفكرة الملعونة أنه التحق بالمتطوعين للحرب. كرهت الزرباز وكرهت نفسي وكرهت المصروب. هل كان الميلودي يفكّر مثلي عندما قابلته أمام الدكان هذا الصباح؟

الحدّاد

كان اسمي من ضمن الذين تمّ قبولهم بكلية الحقوق، جامعة بنغازي، لم أجد أحداً أعرفه في الأسماء المقبولة. لم أغتبط بالقبول، هل حقّا مكاني هو القانون، سواء في النيابة أو المحامين؟ رجعت إلى فندق النجمي، لمحت حقيبة الملابس التي استلفتها من الدنجال مستلقية على السرير المنهك، غريبة قبيحة وموحشة. هل هذا ما أريد؟ لم أستطع البقاء في الغرفة، كانت ضيقة لدرجة أحسست كأني في كسبرة مثل ما يقول بالناصر وهو متكئ على شكارة الكاكاوية مبتعداً قدر إمكانه عن الشمس، كأن بينه وبينها خصومة. تذكّرت الجدّايمي والوالي يتخاصمان على من هو أحق بالأميرة، حمزة البهلوان أم قائد الجيش، ضحكت وقلت:

" عندك حق يا جدّايمي قائد الجيش أولى بالأميرة"

ما الذي يمكن أن يفعله أمير لا يعمل ولا يقف في الصف الأول عند القتال. آه يا بنغازي ها أنذا بين يديك قلقاً مشوّشاً، ليس في جيبي سوى عشرة دنانير، لم آكل منذ الصباح ولا أريد الدراسة في كلية الحقوق، ماذا أفعل يا بنغازي؟ ما من أحد يعرفني ولا أعرف أحد، أزقتك تضيق كما يضيق قلبي كلما داهمه الخوف، أخائفة مثلي أم أنّك عصيّة حتى على الخوف؟ يا بنغازي يا ربّاية الدايح ها قد جاءك أميرهم، أمير الدايحين، هلمّي إليّ......!

هل المكان كئيب أم أن قلبي مقفل على جمالك، آه يا بنغازي أيتها المدينة الكتوم، البخيلة!

لم أغادر بنغازي، أبقتني معها لنهار آخر، التحقت فيه بكلية الآداب، قسم التاريخ.

لن تبدأ الدراسة قبل أسبوع، وليس عندي الإمكانية للسفر لطرابلس والعودة، لذا قرّرت البقاء في بنغازي. عليّ تدبر مكان إقامة آخر بالبلاش أو أرخص من فندق النجمي الذي أتعبتني فيه قرصات البرغوث ورائحة السرير المليء بالموبقات كما يبدو! ماذا يفعل أمير الدايحين سوى أن يديح على أعلى مستوى! في البركة بكسر الباء وهي تجمع الماء الراكد وليس البركة بفتح الباء، من أين تأتي البركة وأنت منتّف بشكل فاخر. في البركة قيل لي أن بيت الطلبة مفتوح، قابلت المشرف الذي عرفت لاحقاً أنه من ككّلة والذي سمح لي بالبقاء حتى يتم تسكيني بشكل رسمي، لكنه طلب مني تدبر أكلي بنفسي.

الميلودي

قبل أن يظهر أوّل خيط للشمس. قبل أن يصعد مؤذن الجامع المئذنة، كنا قرابة الثلاثة ألاف من العسكرية بكامل أسلحتنا، الحق، لم نكن يحمل أيّ واحد فينا سوى بندقية طليانية قديمة، وزيّ ما يقول الريّاني: "مصدية" وزمزمية.

لم أستطع إلا أن انتبه للعلاقة بين تسمية حافظة الماء بالزمزمية وماء زمزم، البئر الموجودة في مكة المشرفة، رّبي يسعدنا بزيارتها، آمين. ربما أيضا قد تكون تسمية تركية، لم أعرف لكن أعجبني الربط بماء زمزم فالسعي لطلب الحياة والخوف من فقدانها هو ما يعيشه الانسان طول عمره على هذه الأرض. هذه كل تجهيزاتنا بالإضافة الى بطانية مقطنة تشم رايحتها من كيلومتر. التراب من حركة الأقدام الحافية يعلو فوق رؤوسنا ونحن واقفين أمام الباخرة الكبيرة الحديدية، الضابط الشاب كان يبدو عليه الارتباك والخوف، كنا نسميه الشفرود، لكن للشهادة كان طيب معانا خير من البالبو الكبير. قالوا من جنوا، من عائلة ديتّة، ربما لهذا كان رقيقا معنا، لأنه لم يدخل الجيش بإرادته. فطرت أنا والريّاني زمّيطة من غير زيت، تعرف ما دقتش أحلى منها، غير نقصها الزيت. صلّينا الفجر، ركبنا البابور وانقطع الكلام مع البلاد التي بدأت تبعد عن أعيننا سريعا. ليس هناك أسهل ولا أسرع من الفقد، وليس هناك ما يشيب الراس أكثر من أن تكون فاقد لإرادتك في فعل ما تريد. السماء بشبشت شوية علينا، ضحك الريّاني، اعتبره فأل خير.

قالي: "يا ميلودي يطول الوقت والا يقصر بنروّحوا لبلادنا."

الله يرحمك كان مت يا رياني، تربتك كانت في تغري وما روحتش!

شفتش البحر قبل؟ فيه فرق بين تشوفه وأنت على الأرض وتشوفه وأنت فسطه، تحسْ روحك زيّ السبيبة في الريح، لا حول لك ولا قوة. البابور يدفّ، نهار يمشي ونهار يجي، اللي قذف شبع من القذاف واللي بكي في قلبه كمّل بكاه. لين جينا لقناة السويس، وقتها عرفت أن البلاد راحت مني، أني رحت منها، تصدّق والا ما تصدقش بكيت لين امبلّت البطانية. قبل ما نوصلوا برّ الحبش بشوية حلّفني الريّاني، إني نصلّي عليه كان مات وحلّف هو إنه يصلّي عليّا كان مِتتْ. قد لا تدرك أهمية الأشياء الصغيرة في حياتنا، قد تغيب عنك الدنيا كلّها لأنك لا ترى الأشياء الصغيرة. العين ما تشوف الا الكبير والكبيرة، هذا علاش يقولوا العين ما يملاهاش الا التراب. بقي الشفرود في غرفته أغلب الوقت لكن البالبو الكبير شيبة النحس ما سيّبش السطاح ويبلبص في عيونه زيّ ما تقول يعدّ فينا، خايفنا نهربوا. الخاين ديمة يقعد خاين. واحد خمسي جنفاوي يرحم الأم اللّي رضعاته، هون علينا الماكلة بشليف إشبحْ وين لقاه، يوم بعد يوم يصطاد ما كتّب من الحوت، هو كان صاحبه الريّاني فكان يجيبينا في الحوت. الدنيا مليئة بالأسرار، كلام قد تكون لا شك سمعته من قبل، تعتبره على أساس أنه من المسلمات، لكنك لن تشعر به إلا عندما تراه أمامك كأنه نخلة تضربك بسعفها، إلا عندما تجرب الحياة كما هي، ستكتشف كم من المسلمات التي لا تعلمها. لو

كلام الناس اللوّلين زرب ما كنّاش نلقوا منين نفوتوا. السراب في الصحراء وجه من وجوهها، لكن أن تراه في البحر، لن تراه لأنه، ستكون أنت السراب. الكلام ستراه حبالا يتفتت على حواف السفينة، سترى الحب والكراهية فردتي حذاء تتمشيان بأبهة، سترى الآمال قد اختصرت في أن تصحو الصباح القادم، سترى البشر ليس أكثر من همهمات ووشوشات لا تكاد الأذن تسمعها.

كنا نسأل الميلودي عن ذكرياته في الحرب، لا ندري لماذا، لكن كأننا على اتفاق، دائما نسأله، دون أن نستطيع أن نجبره. هو الذي يحكي حين يريد أن يحكي. لا نقاطعه ولا نتدخل في كلامه، لا بالتعليق، لا بالرفض أو الموافقة. كنّا عبارة عن آذان تسمع فقط.

"تعرف، لو يفكّنا من ها الخرافة."

قال لي الدنجال وهو يعضّ على سيجارة قاربت على الانتهاء. التفتّ اليه، محاولا فهم قوله بدقة، قلت له " شن قصدك يا دنجال نمّي؟"

"توا طلعلك الميلودي يخرّف؟ باهي علاش تبّيه يحكيلك وأنت يرحم من قرّا وورّا؟"

قذف بالسيجارة بقوة وتفل على الأرض وابتعد عني

"خرّف انت وياه لين تشبعوا!!"

الحرب لا تعني الدنجال ولا كثيرين مثله. حرب فاتت

تغيرت حياة الناس والجماد، هل ننسى التاريخ؟ هل التاريخ مهم؟ الفقر هو الفقر والغنى هو الغنى، تاريخ يسرد على ركابة من طين يشكو من جلاسه. غير أني أحبّ أخبار الحرب، خاصة عندما يحكيها الميلودي. الميلودي يحكي عن الناس اللي يحسّو واللي ما يحسّوش.

أيّ واحد منا يمكن أن يكون الميلودي. الحرب لا تعرف زيد من عبيد، لكن المحارب الحقيقي لا بد أن يميز من هو زيد ومن هو عبيد. حين ننظر الى الوراء ماذا نجد؟

ما عشناه، الطرق والشوارع التي مشينا فيها إلى غايات مختلفة، الناس الذين قابلناهم وقابلونا، بعضهم يترك أثرا، قد يكون ابتسامة لم تستغرق ثانية أو تلويحة يد في الهواء مودعة أو محيية، أو كلمات بقيت عالقة في مكان خفيّ في نفوسنا، تبرز حيث لا ندري كيف لكنها تفعل ذلك بسهولة ويسر. أو مكان لأرض فارغة لا يعلوها شيء تتقافز فيها الطيور بحرية كبيرة. أو مباني قديمة تقول لنا كان لي وقت أقف فيه شامخة جميلة. أو مباني جديدة مزهوة بألوانها وعبق إشكالها، بما تحمله من معاني سلطة الدولة وسلطة المال. تمرّ حياتنا أمام أعيننا كأنها شريط سينمائي بالغ التعقيد. المخرج يفعل فيه من قص وإضافة كما يشاء. عادة ما يترك لنا ما نحب أن نراه أو نسمعه أو نتذوقه. قد لا تكون ذات قيمة لكنها تجعل حياتنا قابلة للاستمرار. طريق السور الذي بناه الحاكم الإيطالي يحيط بالناس من كلّ جانب. أعطى الناس لكل جهة اسماً يشير إلى جغرافيا محددة. هنا كان يقف الجنود يحرسون المدينة المسوّرة من الخطر. بجانب السور وعلى طول امتداده يوجد صف طويل من أشجار السرول، تهب

المكان القبيح قليلاً من البهجة والإنسانية المدانة، تعطيه رائحة كون، يولد كلّ لحظة، رائحة لا زلت أحملها في نفسي منذ أن بدأت الذهاب الى المدرسة، حاملا في يدي شنطة الكتب الخشبية ذات اليد المعدنية التي تؤلم أصابعي الصغيرة. حين دخل أبي الدار، في يده تلك الحقيبة، لم أفرح أحسست أنها رمز للقفر، كرهتها من أول نظرة، ربما هو الحدس الصادق في نفس طفل صغير لا يرى من الدنيا سوى الفاقة والعوز. وأنا أمشي سريعا باتجاه المدرسة التي بنتها منظمة اليونسكو كمعونة لليبيا، كنت أسمع صوت ارتطام الكتب داخل الحقيبة. كان قلبي ينتفض مع هذه الأصوات.

العابرون الطريق الضيق كانوا قليلين، أما على الأقدام أو على الدراجات الهوائية.

كنت ألاحظ كيف أن تقدمهم إلى الأمام كان بطيئا ليس بدافع الضعف الجسدي، لكن بما يحملونه من هموم. الأكتاف محنية والملابس رثة والأجساد نحيلة. أحيانا تمرق سيارات أمريكية فارهة فيها رجال سمان حمر وبيض لا يقف أمامهم شيء.

كنت أتساءل لمن هذه البلاد؟ المدرسة بسياجها العالي الرمادي لا يريح الخاطر. مدرسون بأثواب لا أرى أبي يلبسها! لا أخي الذي يلفّ المدينة القديمة يبيع الكيروسين من الصبح إلى الليل. أخي حين يعود إلى البيت، بعد العشاء وسيجارة كرافن كان يقضي وقتاً طويلاً يرتّب النقود المعدنية في أعمدة كلّ فئة مع بعضها ثم يكفّنها بورق جرائد أو ورق لحم. أرى النقود تموت كلّ ليلة في دارنا الصغيرة. أخاف أن أحمل أيّ شيء منها في جيبي!

الميلودي

"الريّاني ولد أمه"، قال الرفاعي الجبالي وهو ينظر في اتجاه السماء مستلقيا على ظهره فوق الرمال أمام الخيمة التي نصبها الريّاني حينما وصلت القوات مدخل البلدة. طُلب منّا عدم اشعال النيران كعمل احترازي، حتى لا نلفت انتباه العدو. لم نعرف ماذا سنفعل، لكننا كنا نعرف أن المعركة قريبة. ما أعجب الإنسان يقاتل لسبب لا يعنيه ولحسابات لا تهمه. انضم إلينا الريّاني متعبا، غاضبا، لم يطلق علينا السلام.

ـــ"شن دار الواحد، ينحذف ها الحذفة؟"

"لا إله إلا الله، قدر ومكتوب."

"القدر والمكتوب نجو لناس لا نعرفوهم ولا بينا وبينهم لا أرض ولا دم؟"

"ليش خشّيت للعسكرية كانك مش راضي؟"

"أووووفا، توّا رجعنا للغنّاية، ما هوو اللي خشّشك خششني."

وقف الصمت بيننا جداراً عالياً. أصبح الجو ثقيلا، فخرجت من الخيمة، آخد شوية هوا. الظلام كثيف والقمر غائب، ليس من حركة في الجوار سوى بعض الأصوات الخافتة التي تأتي من بئر عميق. جلست على كومة تراب أو هكذا خيّل لي من ملمسه، واضعا رأسي بين كفّي. لا أدرى كم بقيت على تلك الحالة، حتى شعرت بشيء يلمس ساقي اليمنى، انتفضت من مكاني خائفا. ثم رأيته جالسا بجانبي. جرو صغير التصق برجلي.

تحسّسته بيدي فازداد قربا مني.

"شن جابك لينا؟ حتى أنت خايف زيي؟ والا جعّان؟" اعطيته كسرة خبز يابسة، أخذها بلهفة وبدأ في أكلها. حين رجعت إلى الخيمة تبعني. قعد أمام الخيمة صامتا. لمحه الريّاني، فقال لي: "لقيت صاحبك؟ الكلب أمين وما يخون صاحبه، شن بتسمّيه." لم أحّس بسخرية في كلامه، "نبي نسمّيه الحبشي."

القلب جاي في مكان ضيّق

الشوارع متشابهة، ضيّقة، متربة، يلفها الخواء والوحشة حين يكون القلب في مكان ضيّق زي ما يقول الميلودي دائما:"القلب جاي في مكان ضيّق"، تأخذني أو بالأحرى آخذ نفسي إلى أماكن أخرى، لا أرى فيها سوى الأقدام تمشي أو جالسة على كراسي من خشب فيه كثير من الخبث. بيدي أحمل صندوق البويا، الصندوق التي صنعته لي أمّي حين أخبرتها بأنني سأعمل في تبويي الكنادر، قلت لها:

"نخدم ونجيب الفلوس زي الناس"

كنا قد انتهينا من العشاء الذي لم يتعد صونية طبيخة بالفول المدشش، أمّي كانت أحسن من يعمل طبيخة بالفول المدشش في التاريخ المعاصر. هذا نسبة إلى الدحّاي الذي يستطيع بحنكة كبيرة إيجاد كلّ السبل للقدوم إلينا في الليل. من عجائب الأمور وإلى حتى هذا اليوم لا أعرف كيف كان يعلم أن عشاءنا تلك الليلة طبيخة بالفول المدشّش. حين أخبرتها ليلتها لم تعقّب على كلامي بشيء، سوى نظرتها التي أعرفها منذ كنت طفلا صغيرا، أعرف الحزن العميق فيهما. هي لا تجد كلاما تقوله حين يكون الحزن كبيرا. نظرت إلى عيني طويلا وقالت:

"شنو بتدير في القراية؟"

أجبتها محاولا إخفاء وجهي من عينيها: "القراية في الصبح يا يومة، والخدمة مش عيب!"

التفتت بوجهها ناحية الحائط الذي تراءى لي أنه أيضا يتساءل مثلي:

"لماذا؟"

في الصباح وجدت صندوقا خشبيا صغيرا، على ظهره قطعة قماش من رداء قديم. أعطتني جنيهين لشراء ما يلزم من أدوات. كنت مضطرا أن أشتري شيّاتين واحدة سودة وواحدة بنّية. كنت في الثانية عشرة من عمري والمدينة غول يأكل الأطفال حينما تغفل عنهم عيون الأهل والأصحاب. حين يكون طمع الكبار قاسيا بلا حدود. المدينة التي تكتفي بنفسها كالحيّة، لا تمدّ يد رحمة لصغير معدم أو كبير عاجز. تستقبلهم في أيّ وقت، يأتونها مكسوري الأجنحة فلا يعرفون فرارا من لسعات سيطها الحارة. في أيّ عمل أو مهنة توجد صعوبات. أوّلها التسمية التي تلتصق بك وتفقدك اسمك الحقيقي. "بوّاي"، مسّاح الأحذية، هذا هو اسمك في شوارع المدينة وأزقتها. تحوم به بين أروقتها الرطبة ومقاهيها الظالمة. تسير وأنت تصيح بصوتك الطفولي الرقيق: "بويا، بويا" مشدودا إلى أحذية في حاجة إلى تلميع. تتعلّم أن الشوارع موزّعة ومقسّمة على أطفال كثيرين مثلك، بعضهم كان قد سبقك إليها فلا تستطيع العمل فيها. كم من الحروب خضتها من أجل المحافظة على مكانك، فلا يخترقه أحد. كم من المعارك دخلتها فترجع إلى أمّك لا تسألك، لكنك تراها تبكي في آخر الليل لاعنة الوقت والحال. صرت تعرف الناس من أحذيتهم. والأحذية أنواع كالبشر تماما. فمنهم الناعم الطيّع اللين، منهم الجاد المحترم، منهم الصبور القاتم، ومنهم لا معنى له. على

الرّكّابة، قبل غروب الشمس، لا زلت تذكر ذلك اليوم. غضب الميلودي على الدنجال حينما ناداك بالبوّاي. فكّرت في الرجوع، لكنك تردّدت، دخلت، في قلبك غصة. قلت في نفسك ما الذي يفعله الدنجال غير تخييط الشوارع واستجداء الأجانب في شارع الاستقلال وميدان الكاتدرائية. لقد رأيته عديد المرات يلقط في العقابات قرب مقهى الخضراء. لم يرك ولم ترغب في ذلك. تركته فالحال من بعضه. لم يعجبك تلقيطه العقابات، ليس هذا بالعمل الشريف، لا عرق فيه ولا تعب. قال له الميلودي: "البوّاي يولي راجل، لكن الصايع اللي يلقّط في العقابات في الشوارع ويحادي في الزوفرية.." أحمر وجه الدنجال ونظر إليك نظرة يطلب فيها السماح. سامحته من قلبك، لم تنس أن أمّه صاحبة أمك. لم تنس أنه هو الذي علمك النصب بالطريقة، علّمك كيف تجد أكبر دودة، كيف تربط السعفة على المطريف بسهولة، فلا أكبر حمراية مزرّسة تقدر تهرب. لذا سامحته وشربت الشاهي معه. بعد أن بقيت وحدك في الدكان، ربت الميلودي على كتفك وقال لك: "ما تحرجش منه، صغير وتربية هجالة" ثم أضاف: "غدوة يعرف انشاء الله"

كان ينتظرك يوم حافل من الغبار والأحذية والصعاليك.

الوالي

جاء الوالي مبكراً على غير عادته، لم يجد أحداً أمام الدكان، اختلس نظرة سريعة إلى ساعته الهيرمة، تنفس بعمق، وقف للحظات ناظراً في اتجاه الطريق ثم في شجرة السرول الوحيدة، فكّر أن يرجع لكنه سمع الميلودي يخرج من الدكان وهو يضحك، سأله:

"شن يضحّك فيك؟" ردّ الميلودي وهو مستمر في الضحك:

" بالناصر كان يحسبوله قداش رقد وقداش ناض يلقوا حياته بالناقص" ثم استطرد:

" خيرك قاعد واقف، قعمز، توّا نجيبلك طاسة تحلّ العين المغمضة، مش عين عمي بالناصر على كلّ حال".

ضحك الوالي رغما عنه، فقد كان يريد معرفة مصير حمزة البهلوان. كان يريد مقابلة الدحّاي حتى يتم القصّة، فهو لم يستطع أن ينام ليلته البارحة وقد كان حمزة البهلوان في أشد أزمة.

"انشاء الله خير ما فيه سو" سأله الميلودي وهو يقدمله طاسة الشاهي الأحمر.

" ما فيه سو، يا ميلودي، غير قلت بالك الدحّاي قاعد معاك نبّيه يكمّلي قصة البهلوان"

"منو البهلوان يا والي؟"

" هذا الأمير حمزة البهلوان المعروف بحمزة العرب، هو بطل كرار وفارس مغوار ومبيد أهل الكفر والطغيان صاحب الغزوات المعروفة والفتوحات المشهورة"

أجاب الوالي وهو يمسح شفتيه بلسانه مستمتعا بقطرات الشاهي العالقة بهما. صاح الميلودي فرحا: " آهو جي صاحبك الدحّاي"

لمح الوالي الكتاب في يد الدحّي فشعر بالارتياح.

" تعالى قعمز بحداي يرحم الوالدين،كمّلنا القصة، راك ما خليتش النوم يجيني"

تنحنح الدحّاي فقد أحسّ بقيمته، أنه مطلوب ولو كان في قراءة قصة قديمة.

"حاضر، بالك حتى عمي الميلودي يبّي يسمع"

ردّ الميلودي: " علاش لا، ما عندي ما ندير".

جلس الدحّاي على الرّكّابة قرب الوالي، فتح الكتاب، بدأ في القراءة ثم توقف متسائلا:

"تبّي نعاود من الأول؟"

"كمّل يا دحّاي، الأول حافظه حفيظه" ردّ الوالي بسرعة.

تنحنح الدحّاي ثم التفت إلى الميلودي:

"القرجوطة تبي التسريح، مش شاهي، يا سيدي جيب حتى اميّة" وأقفل الكتاب.

تململ الوالي في جلسته لاعنا الدحّاي في سرّه، قال:

"جيب للخرا رانجاتة على حسابي، غير يقرا لعنة الله عليه".

على مهل شرب الدحّاي الرانجاتة وهو يراقب الوالي في متعة كبيرة.

بعد أن تنحنح ثلاث مرات وبسمل وحوقل بدأ في القراءة بصوت واضح خلاب:

(كان عمر العيّار في تلك الليلة خاف من أن الأعجام يباكروا الى الهجوم على البلد فأسرع الى عياريه وجاء بهم الى الجهة المقيم بها زوبين الغدار وفرق عليهم النبال الكثيرة ودعا أيضا برجال أخيه الثمانمائة الأخصاء.

-يعني شنو لخصا يا ميلودي؟

أحس الدحّاي بالضيق لأن الوالي لم يسأله هو فنفخ في غيض وسكت.

لخصا يا والي معناه الراجل اللي منحيين منه دحياته والتفت الى الدحّاي قائلاً والا شن راي الدحّاي؟ عقّب الوالي لازم الدحّاي يبيع فيهم، فضحك الإثنان والدحّاي يصرخ يا عندين ز....يا تيو...._ طبطب الميلودي على كتف الدحّاي"هيا كمّل ما يهمّك رانا نقجّمو"

دعا أيضا برجال أخيه الثمانمائة الأخصاء وأوصاهم بأن كلّ واحد منهم يأخذ قوسا ونبال وعين لهم مكانا حصينا وقال لهم أعلموا إننا لا نقاتل العجم الآن إلا بعد ان يأمر أخي حمزة ويأتي الزمان الموافق للقتال غير أننا إذا هجموا علينا ندافع عن المدينة لأن بذلك يساعدنا ولا يقبل بأن تصاب المدينة المطهرة بسوء من الكافرين والمعتدين ومتى رأيتم الاعداء وقد هجموا علينا فصوبوا نبالكم عليهم وارموهم بها فهي لا ريب تصيب مقاتلهم ويعمي الله بصائرهم ففعلوا كما أمرهم وأقاموا على الانتظار الى أن كان الصباح.

"تعرفوا يا جماعة الخير زمان كانوا الناس محترمين، تريس، مش زي توّا، ازمان الحرب في النهار، راجل قدام راجل. أما الليل في لمّ المجاريح وللراحة، ماكانش فيه الخونة. تعرفوا آمتى امشينة

لبر الحبش كان الطليان يخلونا نغير على الناس في الليل، اتفوه عليهم ليوم الدنيا والدين"

"صحيح يا ميلودي" عقّب الوالي وهو ينظر على البعيد.

"التريس وينهم؟ كملوا وحتى المرا اللي تجيب فيهم ماتت من زمان هيّا هيّا يا دحّاي كمّل الله يرحم الوالدة"

قال الدحّاي في نفسه: "غير شن حصلني هالحصلة، يلعن أبو حمزة البهلوان!"

ما أن انتهى الدحّاي من القراءة حتى ابتسم الوالي وقال:

"شوره البطل مايموتش"

قال الميلودي: " البطل اللي مايموتش مش بطل"

" العافن ما يموتش يا والي، العافن تقعد صنته لآخر الدنيا".

شعر الوالي بالضيق كأن الكلام موجه له. صحيح هو لا يعمل ولا يحزنون، رغم أنه لا يعاني من مرض أو كبر. الناس لا يمكنهم أن يفهموا أنه ببساطة لا يستطيع العمل وبس.

"ليش كلّ واحد ناسي روحه ومهتم بالآخرين؟"

"ليش ما يكونوش زي الفول كل فول لاهي في نوارة؟"

"هيا مني أني السلام عليكم" قال الوالي وهو يبتعد في اتجاه الغرب حيث تنتهي كلّ الأشياء.

الحارة

الطريق الى الحارة دائما مليئة بالمغامرة، خاصة بالنسبة لطفل أو شاب. الحارة هي مكان صغير عادة وضيق، أزقته ضيقة وملتفة، تعطي للمار منها فرصة الاختباء والقدرة على الهرب والمناورة في القتال. الحارة هي مكان عمل وإقامة اليهود. هذا يتماشى مع الظروف التاريخية التي عاشها اليهود في مختلف دول العالم في الأربعة ألاف سنة مضت. كانت الحارة قريبة من وسعاية كبيرة، كان يربطها من الجهة الشمالية طريق ترابي على جانبيه بعض أشجار النخيل. عادة ما تكون من النوع العامي أو العلافي يعني ببساطة لا يصلح كثيرا للإنسان. واللي في الطريق مش ليك. في هذا الطريق يوجد دكان شعيب. هناك تناقض كبير بين ما يوحي اسم شعيب من قدسية ورهبة وشعيب نفسه، فهو قصير القامة، نحيف البنية يقولوا عليه مسلول لكنه ليس مسلولا غير القرمة بتاعه هكي. الدكان كان مثل صاحبه، يعني فمه في قعره. يبيع شوية حاجات لا أساسية لكنه لم يقفل دكانه على مدى عشر سنوات متواصلة. بعد أن دخل ابنه الفرارة إلى كلية الشرطة وصار شيئا مهما في البلد، سكّر الدكان. أعلن لكلّ من يعرفه أنه قد تقاعد، ضحك الناس منه، لكنه قال بصوت عال:

" الخدمة خدمة، في الفيشُّو والاَّ في دكان، اللي يسيّب معناه تقاعد، وبعدين شنو أحسن من أن الواحد يفتك من وجوهكم المقلّبة".

صار شعيب من المداومين على حلقة الحاج الطاهر للخربقة في الوسعاية بحدا الجامع. في إحدى المرات، كان شعيب منهمكا في اللعب مع منافسه العتيد مصباح الكورغلي، كان

يفكر كيف يفوز عليه وقد حاصره في كلّ الزوايا، أخرج علبة السفير من جيب فرملته، أشعل سيجارة وبدأ يحك رأسه، طال الانتظار ولم يلعب. تحلّق الحاضرون عليهما، حتى الحاج الطاهر مدّ رقبته قريبا من رأس شعيب. قال الفزاني:

"كلابك ماتوا يا شعيب، وقّف خيرلك"

علّق الحاج الطاهر بصوت عال: " متقاعد وحشايشي خربقة"

وقف شعيب وقال غاضبا: "مش راجل اللي يجيكم هني"

ذهب تتبعه ضحكات الجالسين حول الخربقة. الطلياني باولينو دائما نظيف، في ملابسه البذلة المكوية والقرواطة الزرقاء لم يبدّلها. الطاقية الرمادية هي هي، علامة الطليان مش طاقية العرب حمراء أو بيضاء لا تقي من حرّ الشمس ولا حتىّ منظر. الطاقية الطليانية علامة السلطة والإختلاف، من ماذا لا أدري! ابنته مارية حمراء زي الخوخ، رائحتها مشبّعة بالنعناع مش بالفاصوخ أو القماري. رائحة نسائنا خليط من التراب والبسيسة والجاوي. أما هم فكلّ شيء ناعم ولذيذ. كنت اقترب من دكان باولينو أرى الستار المكون من الكثير من الكرات البلاستيكة المتعددة الألوان، التي تصدر طقطقات غير مزعجة عندما يدخل أحد إلى الدكان. عل الطارمة الأمامية تقف علب الحلوى والزيتون جنباً إلى جنب. في الضحى يقف باولينو يطحن القهوة، لا زلت بعد كلّ هذه السنين أشم رائحة القهوة التي لم يتسنى لأبي شراءها لنا لضيق ذات اليد، حتى عندما ذهبت إلى إيطاليا لدراسة الطب ورغم تجولي في مقاهي روما وشرب الكثير من القهوة الإيطالية لم أتذوق طعم امثل تلك التي كنت أشم

رائحتها في دكان باولينو. واحدة من الأمنيات الصغيرة التي لم أتمكن من تحقيقها. روما في الستينات بعد هزيمة خمسة يونيو، مزدحمة وتمور بالتحولات التي بدأت تستشري كالنار في اوروبا. شاب من مدينة في ليبيا لم تتعدى مغامراته الذهاب الى سينما العوزي وبعض الأحلام بهند رستم وماجدة يجد نفسه في هذه المدينة الكافرة الغامضة الفاتحة شدقيها لكلّ واحدٍ مجرّب أو من الباكو.

حكّة النفّة

لم يتمالك ضحكته حين لاحظ الرجل العجوز الجالس قريبا منه في مقهى الأمة العربية في الظهرة بمدينة طرابلس، كان الرجل ممسكاً بعلبة معدنية صغيرة، حكّة، ليست حكّة بالمعنى المستعمل للحكّة ولأغراض الحكّة. علبة تستعمل للنفّة، يسمّيها المصريون النشوق، لكنني اعتقد أنها بالليبية أدقّ، ليس تعصّباً لليبيا ولا تحاملا على مصر، إلا أن النفّة تحيلك للعضو وليس لوظيفة العضو، من هنا تبدو لي دقّة الاسم. أخبرني والدي الذي مات بسرطان المثانة البولية:

"آمتى جي موسيليني لطرابلس، بلّغوا كلّ شيوخ القبايل والمحلات باش يلقطوا الناس كبير والا صغير ويجيبوهم للبياطسا في طرابلس باش يوقفوا سطور سطور ويرحبوا بموسيليني لعنة الله عليه كان كلب وأحرف من الشيطان، باش يشجعوا الناس حشايشية النفة وزّعوا عليهم حكاك النفّة منقوش عليها صورة موسيليني راكب على الفرس (قالوا فرس عربية) علي خاطر مافيش في الدنيا أحسن من الفرس العربية"

انتبه الرجل العجوز، التفت محييّا بابتسامة مليئة بالطيبة أو لأقل مليئة بلا شيء ثم سألني بصوت عال: "قدّاش الساعة عندك؟"

"الساعة سبعة الا ربع يا حاج" أجبته سريعا لكنه سألني ثانية:

"كيف عرفت الساعة وأنت ما عندكش ساعة؟".

بدا على الرجل الضيق والحزن معا كأنهما توأمان لحياة الناس. ملابسه قديمة الشكل والمعنى، معطف الجيش الإنجليزي أصفر اللون، تحته سورية طويلة مخطّطة طوليا خطوطا بيضاء وزرقاء وفوق المعطف جرد صوف بايد، أما غطاء الرأس فهو طاقية حمراء تحولت إلى شنة لا شك أن لها تاريخ طويل. ربما كان حارس مخزن شركة أجنبية، فثقة الأجانب في كبار السن القادمين من الأرياف أكثر من شباب المدينة. ربما كان راعي غنم أتى اليوم إلى المدينة وربما وربما. ليس مهما من يكون فهو ليبي وليبي حقيقي أيضا. اقترب منه، على وجهه ابتسامة أرادها أن تكون واضحة ليطمئن قال له:

"نقّة حقانية صنعة العزوز"

ارتعشت يد العجوز وعلى وجهه علامات حيرة مباغتة،

"شني حتى أنت تنف والا تدقّ في الحنك؟"

"يا عمي أني عمري ما نقّيت لكن العزيز عندي حشايشية نقّة وبتاع حوش، بالرتم يا حاج"

"يا ولدي نقّة من غير رتم ما تتسمّاش نقّة، الكيف كلّه في الرتم"

" نطلبلك فنجان قهوة والا تبّي شاهي؟"

" أني من بكري انراجي في ولد اختي المصروب، يخدم شاويش في مركز باب بحر"

" وصلت يا عمي، المصروب صاحبي من قديم وأمه رحمة الله عليها كانت زي أمي، تفضل أيّ حاجة، أنا في مكان المصروب"

ارتخت عضلات وجه العجوز وتلاشت الحيرة من على عينيه، أخرج حكّة النفّة، بعناية فتحها وقدّمها ألي، في تلك اللحظة البالغة الحميمية لمحت الفيزقا يدخل المقهى مترنحا كعادته، شعرت بانزعاج ورغبة شديدة في مغادرة المكان فأنا لا أحب الفيزقا وخاصة في اللحظة التي مددت يدي فيها لأخد قبصة من النفّة البيتية.

حاولت تجنّبه لكنه اقترب منا وقال بصوت عال:

"من آمتى تقعمز في القهاوي؟ وبديت تنفّ، هذا آخر زمان خريج الجامعة الليبية ينفّ أوين؟ في القهوة، من هالقافلة اللي معاك؟"

كان العجوز يحدّق في الفيزقا دون أن يتكلم.

"هذا عبد الكريم الفيزقا فورتي باب بحر، مترونق واخد شويشات معدّل جوّه ما تعدّلش عليه، ما يخوّفش" ثم وجّهت كلامي للفيزقا باش ما يلبّزش قدّام الشيباني

"هذا خال المصروب ''

''هات إيدك يا حويج المصروب أرجل واحد. خاله خالي، غارسون يا غارسون، جيب أحسن شاهي عندك لخال المصروب المفدى وما تعطّلش عليّ عندي خدمة"

"شن هي الخدمة بتاعك؟"

كان الفيزقا قد وضع رجلا فوق رجل وينظر الى البعيد

"خدمتي أبي ما تقدرش تعرفها وكلّ الناس اللي زيّك والا زىّ هذا بتاع الجامعة ما يعرفوهاش"

قال الفيزقا في كبرياء.

سكت وهو يحرك في الشاهي الذي أحضره الغارسون الخائف فقد وقف ليتأكد أن الفيزقا راضي عليه.

"شوف يا خالي، خدمتي انبيع ونشري في التريس"

"آمتى كانت هذي خدمة؟"

"هذي أهم خدمة، ما يقدرهاش غير الفالحين زيّي وما فيه غير أبي في المدينة"

"يعني التريس تنباع؟"

"أحسن بضاعة يا خال"

لم أستطع الجلوس تاركاً الفيزقا يسخر من خال المصروب، وقفت، قلت له:

"هيّا يا عمي نوض امشي معاي للحوش تتغدّى معاي، المصروب، توّا نبعتله الفيزقا يبلغه"

"تي عليّا الطلاق حتى كان ما تزوجتش، ما يتغدّى الخال الا عندي وطاجين حرايمي بالسردينة وأنت والمصروب معاه. هيا يا خال نوض معاي أبي، هيّا وأنت تقول عليك بابور سمينتو"

الفيزقا

لاحظ أن عبد الكريم الفيزقا لم يأخد الطريق الأسرع إلى بيته، بل أختار الطريق الأطول، الذي يمرّ على الحارة الكبيرة وحوش البدرونة. فكّر في الأمر لكنه لم يصل إلى تفسير؛ كان من المفروض أن يعرف الفيزقا هذا الطريق جيداً فقد استعرض فيه أكبر استعراضاته الفورتية ضد فورتيات كوشة الصفّار ووسعاية بوراس. حين وصلوا قريبا من حوش عيّادة تمهّل الفيزقا في مشيته، بدأ يصفر لحنا طرابلسيا شائعا. كان خال المصروب مطرق الرأس، منحني الكتفين كأن الدنيا وقعت على رأسه، مهموما، حزين العينين. فجأة أطلّت شابّة وجهها مليء بالأصباغ من نافذة حوش البدرونة، تلوّح بيدها إلى الفيزقا. بسرعة اقتربتُ منه وقلت له هامسا في أذنه:

"ما ناقص غير القحاب يا فيزقا توريهم لخال المصروب"

أجابني وهو يضحك بصوت عال:

"هو لاقيهم!"

"كيف حالك يا فيزقا؟ بتاكل عندنا والا شبعان؟"

رفعت رأسي فرأيت عينين ولا أجمل وابتسامة ولا أروع.

"شن سماها؟"

"سالمة القابسية. خيرها خبلاتك؟"

التفتّ إلى خال المصروب الذي لم يغير من وضعية مشيته ولم يلتفت إلى الشابة. أقترب منها الفيزقا ووضع في يدها صرّة صغيرة، أخدتها ودخلت سريعا. لم يقل لي شيئا، لم أسأله.

البيت بابه قديم مشلّخ الحواف، الطقطاقة مايلة، مصدية. فتح الباب وتقدمنا قائلا:

"هيا يا خال وأنت يا فيلسوف خشّوا، المربوعة على يمينكم. اتفضلوا، زارتنا البركة، هيا، هيّا"

"منو اللي خش؟ كرومة؟ جيت؟"

"هذي الحاجة أمّي" " إيه يام, جايب معاي ضيوف"

"مرحبتين بيهم ضيوفك"

تركني وخال المصروب الذي اتخد مكانه فوق المندار. كان الارتياح باديا عليه.

"هو متزوج؟" سألني خال المصروب.

"الفيزقا عزّاب, عايش مع أمّه، عزوز عميا وأخته عواشة"

" عازبة والا هجالة؟"

الفيزقا هرب من الكتاب بكري. حفظ جزء عامة من القرآن، تعلم كيف يكتب ويقرأ. هذا كلّ ما كان في حاجة له. لم يعش أبوه معهم طويلاً، اختفى ذات ليلة، هكذا كما يختفي كلّ شيء في هذه الحياة! قالت له أمه

"بوك جي من ككلة، وحداني زي رطبة البرونسي"

بعدين خدم في كوشة خبزة مع واحد شيباني حتى هو من ككلة. كان يبات في الكوشة. تلاقى مع خوي سعيد، وقتها رحمة الله عليه كان قبضي باب بحر. صحيح واحد سكّارجي لكن عمره ما ظلم حد. في مرة بوك كان بايت في الكوشة، جوه جماعة في عقابات الليل قلّعوا الباب وقعدوا يدوّروا شن يخنبوا. بوك ناضلهم بالكوريك طيّحم كلّهم على الوطا. في الصبح طلقهم. وصل الخبر لخوي سعيد، مشي ناداه ومن يومها وهمّا صحاب. مرة سأله خوي قالّه علاش تبات في الكوشة؟ المهم قالّه شن رايك تاخد مرا ونص حوش؟ لم يتردد بوك ووافق. كانت المرا أني، وكان الحوش حوشي.

أني عميا صح، لكن فالحة في تدبير أمور البيت. بوك ما كانش نقناق، ولا بتاع مشاكل. كان يلقى في ماكلته طيابة، وحوايجة مغسولات. لكن بعد ما انزدت إنت، تغيّر حاله وما عادش يقعد في الحوش هلبة. أني ما زعلتش، عارفه اليوم هذا بيجي، وعارفه إنه راحل من هني.

المهم في يوم نضت من النوم، ما لقيتاش، لكن لقيته مخلّي فرملته وطاقيتة فوق المندار. عرفته أنه رحل ومش راجع. وين رحل؟ ما نعرفش، ما نبيش نعرف. اللّي لازم تعرفها يا ولدي:

بوك عمره ما دارلي حاجة عافنة ولا حتى بالكلام. إنت واختك عواشة، الريحة الفايحة اللّي قاعدة منّه."

الفيزقا ظلّ طوال حياته يبحث عن أبيه. أبوه الذي عرف اسمه كاملاً من شهادة الميلاد: مفتاح بوكر لحيول. عندما أخذته أمّه إلى الرايس عثمان في مقهى البحّارة، لتطلب منه أن يشغّله معه ويعلّمه صيد السمك، سأله الرايس عثمان:

"إنت ولد منو؟"

"أنا الزرقاني مفتاح بوكر لحيول." ردّ الفيزقا.

"أرجلْ واحد عرفته، ونسيب رفيقي سعيد"ما تخافيش عليه، يقدر يبدا من غدوة"

قال الرايس عثمان لأمي.

أوّل خروج مع الرايس عثمان للصيد كان مميزاً، فقد طلب منه المجيء قبل المغرب، يجيب معه غطاء خفيف. كان معهم بحّار آخر اسمه الخيتوني، رجل طويل، لا يتكلم كثيراً. كثير التدخين، سجائره المفضلة، اسبيريا، لا تشتعل. كان الرايس عثمان يضحك لما يشوفه يولّع في السبسي "تموت إنت والسبسي ما يولعش!"

"في المغرب، تسقّدنا، طلعنا من المينا. الجو لا هو حر لا هو صقع. قعدنا نجدفوا يجي ساعتين. ولّع فيهم الخيتوني زوز سباسي."

"علّق اللامبارة يا زرقاني. وانت يا خيتوني لوّح سبسي النمّ وابدا في حطان الشبك."

قال الرايس عثمان وهو يلهث، قمنا بعمل ما أمر به. جلسنا، كان صمت عميق يحيط بنا.

الفيزقا هذي لقامة سماهالي عمي بالناصر. قبل كانوا ينادوا فيّ الزرقاني لحيول. المهم تلك الليلة، وفي الصمت العميق، حولنا الماء وأضواء لمبارات تلوح من بعيد. جلس بجانبي الرايس عثمان، قال لي:

"تعرف علاش اللمبارة نديروا فيها؟"

"ضوّها يبان من تحت الميّة، زي ما حني نشوفوا في القمر آمتى يبدا كبير"

"السردين يحب الضوء يشوف فيه يتحرك يحسابه حاجة مليانة حوت صغيّر، يجي هاجم، يحصل في الشبكة"

"هكّي بنادم يجي للموت بروحه. الجوع يعمي العيون يا ولدي، راك تصدّق اللي يلمع قدامك!"

كان الخيتوني يولّع في السبسي ويسب في الدخّان والّي يتبّع الدخّان.

"كيف الراي يا خيتوني! السبسي ما باش يولع، والليلة طويلة؟!" سأل الرايس عثمان

"أني لا نعرف نغني، لا نرقص، لا نضرب مقرونة!" أجاب الخيتوني

"باهي شن رايك تحكيلنا قصة اللفعة؟!"

"ماك عارفها!"

" أني عارفها لكن لحيول مش عارفها" قال الرايس عثمان

"باهي أبدا إنت في تطييب المبكبكة وكثّر فيها الفلفل!"

"شوف يا سيدي، ازمان، مش ازمان هلبة، كنت كيف جاي من الختنة، صبو، لقيت خدمة في سانية في عرعارة. مرّة بعد ما كمّلتْ حشان الصفصفة، اتّكيت عل شجرة ليمة، بحداي زير اميّة، وطبق فيه شوية رطب طابوني. خداني السهو، رقدت، وكنت لابس سورية طويلة ما تحتها شي. ما نندريش على روحي، فقتْ حسّيت بحاجة بين فخادي، حاجة رطبة، تتحرك بالشويّة. قمت راسي فوق شفت جرة، عرفتها جرّة لفعة. ما عاش عرفت شن اندير! انوض، والا نقعد في مكاني ونقيم سوريتي! من حرارة الروح، عيّطت، جتني بنت صاحب السانية، قولتها وين بوك؟ قالت مهناش، خيره شن فيه، علاش تعيّط؟ معاش عرفت، انقوللها والا نموت! قلتلها فيه لفعة خشّت تحت السورية بين افخادي. شبحتلي شبحة شينة، بعد ما عرفت إني نتكلم بالحق، قالتي، راجيني ما تتحركش. بعد شوية جتْ وشادّه في ايدها جريدة طويلة في راسها رابطة قدّيدة بشحمها.

قالتلي عندك فرصة واحدة يا تنجا يا تموت. اقعد ما تتحرّك بكلّ، جابت راس الجريدة قدّام السورية بحدا رجليّا. بعد شويّة حسيت بحركة بين افخادي وكأن شي يمشي بين رجليّا. مدّت راسها اللفعة من تحت السورية، البنت وخّرت بالجريدة، اللفعة تطلع، والجريدة توخّر، لين سمعتها قالتلي، نوض اجري نوض اجري. نوضت وجريت. بعدين ولّيت لقيتها مفزّطة اللفعة بفاس. وقفت نشبحلها واني مش عارف كيف نشكرها. شبحتلي وقالتلي ما عادش ترقد ورجليك مفتوحات!"

"تعرف يا لحيول، من يومها الخيتوني يربط في العدة في شكارة خيش، هههههه" قال الرايس عثمان.

"ريت يا ولدي مش كل اللي يقتلك يقتلك!" قال الرايس عثمان وهو يحرك في المكرونة

"باهي يا عمي الخيتوني، معليش وحتى انكان فيها ارزالة، شن درت مع بنت صاحب السانية؟!"

"تزوزتها، وجابت معاي أربعة صغار" قال الخيتوني

"تعرفوا يا جماعة الخير، المرا موصيتني على فروج سمح و منّاني مقوّم، إن شاء الله نحصلوا الليلة!" قال الخيتوني وهو يحاول توليع سبسيه

" المكيرينة واتية، هيا تفضلوا!" قال الرايس عثمان

عند الفجر رجعنا إلى الميناء محملين بصيد وفير من السردينا، وصندوق فيه طرفين منّاني وخمسة فراريج كبار.

"خود فرّوج وسردينة روح بيهم لأمك وأختك، تغدوا بيهم" قال الرايس عثمان

في الطريق إلى حوشنا ما وقّفتش ضحك، لفعة تحت سورية بين افخاد الخيتوني!

قعدت مع الرايس عثمان عشر سنين تامات تعلمت فيها صنعة الصيد. الخيتوني رجع إلى قريته، قال للرايس عثمان:

"خلاص، كبرت، وما عنديش إلا نرجع لبلادي. كان جاباتك رجلك للختنة، راهو حوشي حوشك"

تعرفت على جماعة ركّابة الميلودي بعدين، حتى هيّ جت صدفة. الدحداحي كان من أقرباء الخيتوني. ديمة يزور فيه في المينا. مرّة قال لي الخيتوني واحني نفرّغوا في الصناديق من المركب: "الدحداحي، شاب باهي، غير قليل بخت. راجل يعرف يقرا ويكتب، قاعد يخدم مع شيباني طلياني في شارع بوتشيني يصلّح في البشاكليط!"

"الخدمة مش عيب يا عمي الخيتوني!"

"مسيّب أهله وعايش بروحه في المدينة، باهي شن آخرتها؟!"

مرّة جاني الدحداحي، مشيت معاه لركابة الميلودي. شفت المصروب والدحّاي والزرباز، وعمي بالناصر. ثم استمرّت الجيّات لدكان الميلودي. كل مرة نمشي نرفع معاي صندوق حوت مشكل.

كان كل ما نمشي، ونقول السلام عليكم للميلودي، كان عمي بالناصر من داخل الدكّان يسأل الميلودي"منو جي؟ نشم في ريحة حوت! لازم الفيزقا جي؟!" من يومها سمّوني الفيزقا.

خالي سعيد قبضى باب بحر، ناداني مرّة للقهوة بتاع البحارة، قالّي:

"توّا إنت كبرت، أمّك وأختك ما ليهمش حد غيرك. يا تحميهم يا يقعد حوشكم مهبوك!"

"أني ما تعرفش آمتا ربّك ياخد أمانته، أني ما درتش صغار،وانت زي ولدي، عندي قطيعة أرض في مزدة، هي ليك، تلقاها وقت الحاجة."

مات خالي سعيد، قالوا كان سكران طاح من كاليس يجري! وقالوا ضربوه على راسه بهراوة، أيّاً كان السبب، خالي سعيد مات.

أن تعيش في مكان يزدحم بالبحّارة والعاطلين، والتجار واللصوص، عليك أن تكون قويّاً. لا حلّ آخر يمكن أن يضمن حياة هادئة لك ولعائلتك. كنتُ أحمل معي دائما كمّية دزايرية. لكي يهابك المجرمون عليك أن تضرب أكثرهم قوة وشراسة. مرّة وأنا عائد من المينا بعد ما بعنا كلّ ما اصطدناه إلى تجّار سوق الحوت، كنت شاد في يدي كيس مليء بالحوت. لمحت الزغدة، واحد من أمكر المجرمين في باب بحر، في ركن الزنقة واقفاً ينتظر، عرفته يبّي يأخذ مني كيس الحوت. لكني قلت لنفسي، لو اعطيته الكيس، سيأخذ أكثر من الكيس. امسكت بيدي اليسرى الكيس، والكميّة بيدي اليمنى داخل جيبي. تحرّك من مكانه، تقدّم نحوي، وعلى وجهه ابتسامة كريهة. أبطأت من سيري، يدي تمسك بقوة على مقبض الكمّية.

"لحيول الْمّسّخ، هات الحويتات وروّح خيرلك!"

"تعالى خودهم بروحك كانك راجل، يا زغدة ز.."

انطلق يركض نحوي بقوة رافعا يده عالياً، انتظرت بثبات لين صار قريب مني، ملت إلى جهة اليمين، وفي نفس اللحظة، أوقعت ضربة قوية بالكميّة على كتفه الأيسر، صرخ بصوت

مخيف، فيما الدم يسيل على قميصه غزيراً، سقط على الأرض، وقفت فوقه والكمية على رقبته، صارخا فيه: "تبّي نذبحك يا خرا؟!"

"ما عادش نقربك، يا سويدي ما تقتلنيش!"

هرع ناس كثيرون إلينا. أبعدوني عنه وهو يبكي. منذ ذلك اليوم أصبحت قبضي باب بحر. لكني لم أعتد ولم أظلم أحد أبداً. الزغدة صار من أعز أصحابي. طلب مني أن أعلّمه القراءة والكتابة.

طلبت من الرايس عثمان أن يسمح له بالعمل معنا على المركب، ووافق.

الوحيدة التي غلبتني هي سالمة القابسية. أوّل مرة شفتها كانت عندما طلب مني الرايس عثمان، أن أحمل صندوق، فيه فرّوج، صاورو امبريالي، تريليا، قراقوز، طرفين منّاني. كلمني هامساً:

"خود الصنيديق هذا للحوش اللي بابه عليه رسمة غزالة"

وقفتُ أمام الباب لم أطرق الباب، كنت أفكر، ما علاقة الرايس عثمان بهذا البيت!

"احني هني يا اللّي تحت؟!"

نظرت إلى أعلى، وانت تلك النظرة التي غرزت السكين في قلبي.

"غزالة فوق غزالة!" قلت في نفسي.

"الرايس عثمان باعتلكم صندوق حوت"

"استنى أني جايّة!"

كان قلبي يدق بقوة، العرق يسيل على وجهي. فتحت الباب، سقط قلبي في قاه بئر عميق.

وقفت فاتحاً فمي، وهي تبتسم.

"هات الصندوق، خيرك واقف مسبوه؟!"

مدّت يديها امسكت الصندوق، في لحظة خاطفة أحسست بأصابعها تلامس يديّ. احمرّ وجهي، ولم أعرف ماذا أقول. التفتّ إلى الوراء ومشيت كأن رجلي مربوطتان بالرصاص والقطران.

عندما وصلت إلى المقهى وجلست بجانب الرايس عثمان، نظر نحوي، ابتسم ولم يقل شيئا.

طلبتُ فنجان قهوة بصوت مرتعش. شربتُ القهوة بسرعة، ثم طلبت فنجان قهوة آخر.

"خيرك يا ولد، تقول مضروب بكمّية؟!" قال الرايس عثمان

"مضروب بسيف عنتر بن شدّاد، يا رايس عثمان!" أجبت

"لازم شفت سالمة؟"

"هي سماها سالمة؟!"

"شن رايك نتغدوا اليوم في حوشهم؟" سألني وهو يبتسم

السقيفة غريانية! رائحة زهر تعبق بوسط الحوش. تنحنح الرايس عثمان الذي كان يمشي أمامي.

"مرحبا بيكم رايس عثمان!"

امرأة متوسطة العمر، سمينة بدرجة لا يمنع جمالها من التوهج

"وصلنا، يا عيّادة، وصلنا!" قال الرايس عثمان

"منو معاك؟!"

"هذا الزرقاني، يخدم معاي!"

"مرحبا بيك وبالزرقاني" قالت المرأة وهي تبتسم

"شن درتيلنا؟"

"حرايمي، و باميه تاكل صوابعك وراها"

بقيت ساكتاً، في انتظار أن تظهر غزالتي سالمة. لم يطل انتظاري، جاءت بسفرة كبيرة عليه كل شيء. حتى شيشة النازيتّة والثلج.

تكرّرت الزيارات إلى هذا البيت، وتكرّرت لقاءاتي مع سالمة. كانت كلها ما فيها شي يحشّم.

في يوم، جبتلهم خبزة سخونة من كوشة نعرفها في سوق الحرّارة، نادت عليّ عمتي عيّادة، قال لي:

"سالمة هاذي قاعدة زي الزهرة، بجاه الله ما تفسّد عطرها. كان تحبها من قلبك، خليها فايحة."

لم أعرف ماذا أردّ عليها. بعد تردّد قلت لها:

"يا رب نقدر نصونها ونتزوجها!"

"هي في رقبتك وانت في رقبتها لين تموتوا." قالت ثم دخلت دارها.

صرتُ لم أعد أدخل البيت كثيرا، كنت أكتفي بالوقوف بالباب.

عيّادة

هذه المدينة الغول، لا ترحم. تبتلع من يقف على بابها حافياً عريان. تبدي له فتنتها، وتخفي عتمة روحها. فكيف بامرأة تركها وليفها في ليلة شتويّة ممطرة! ترك نطفة تأكل من عمرها، لا تعرف ماذا تفعل. الكلّ سيرى تكوّر بطنها، الهالات السوداء حول عينيها. سيشمّون القلق والخوف في كل ضحكة لها ونظرة عين. تركها وهي لم تكمل عامها العشرين. لا أب يعطف عليها، لا أخ، لا أحد!

وقفت أمام بابٍ من أبواب هذه المدينة القاسية، ولم تنظر وراءها بعد ذلك أبدا.

ركبت البابور فجراً، نظر نحوها محصل التذاكر في توجس لكنه لم يقل شيئاً.

كانت الطريق إلى بلدتها تركض هاربة إلى الوراء، النخيل، المستقيم والنخيل المعوج، جميعها تركض إلى الوراء.

"العوجة، عوجة من يومها." كانت تقول أمها التي ماتت بالجدري.

"العيب مش في النخلة العوجة، العيب في اللّي غرسها عوجة"

قالت وهي تنظر من نافذة البابور. كانت تحمل معها صرتين: واحدة في رحمها روح تتنفّس وتتحرّك، وواحدة فيها شلاتيت وخبزة تنور. رجال في حواليهم وجرودهم، يجلسون صامتين. بعضهم ينظر إليها. لم يتحدث معها أحد. هي لا شيء. في محطة القطار، كان الازدحام شديداً. فجأة صار القطار فارغاً، أسقط كل ما كان فيه، ليتها تستطيع أن تسقط ما

بداخلها. ليتها تتحرّر من هذا العار. هل تحبه؟! هل يحبّ إنسان موته؟! هي لا تعرف في هذه الحياة إلا تطييب البازين وخبزة التنور. هي تعرف أيضا كيف تضحك في وجه حبيبها الذي تركها وهرب.

لن تضحك لأحد الآن. وقفت في المحطة تنتظر. تنتظر ماذا؟!

اقترب منها رجل يرتدي فرملة لالاجا. ترك مسافة بضعة أمتار بينه وبينها. أصبحت محطة لنقار فارغة تقريبا، بدأت تشعر بالخوف الشديد. ماذا يمكنها أن تفعل وحيدة بحملها الثقيل في مدينة يضيع فيها التريس اللي بشناباتهم.

"شنو تراجي في حدْ؟!" سألها الرجل

لم تردّ عليه، اكتفت بالالتفات حولها.

"أني سماي احميدة، أنتِ شنو سماك؟

"أوّل مرّة تنزلي لطرابلس؟"

"إينعمْ، هذي أوّل مرة" ردّت عليه وهي تنظر إلى تحت. ستمر سنوات طويلة حتى تستطيع النظر إلى أعلى. ستغيب عنها الشمس، والشجر، والأسقف. سيغيب عنها معنى اسمها، معنى أنوثتها.

"عندك وين تسكني؟" سألها الرجل الذي يرتدي فرملة لالاجا، ثم اقترب منها أكثر

"لا، ما عنديش!" قالت بصوت منخفض

""ما فيش مشكلة، هيا تبعيني"

"وين انتبّعكْ؟!" قالت في صوت خائف

"غير ما تخافيش، ما يصيرلك شي" قال الرجل

ضمّت صرتها الرثّة إلى صدرها وسارت خلفه. لم يلتفت وراءه، عرف أنها تتبعه. لقد وقعت بنت أخرى، ستفرح عَرَفتَه، ربما تسمح له أن ينام مع عزيزة!

دخلا المدينة القديمة من باب عالٍ، مزدحم بالبشر. واصلا سيرهما حتى وقف الرجل أمام بيت في زقاق صيّق. الباب قصير، دقّ عليه بيدٍ معدنية مربوطة على الباب. فتحت الباب فتاة صغيرة، حدّقت في المرأة الواقفة بجانب احميدة.

"منو هادي يا عمي احميدة؟!" سألت الفتاة

"توّا مش وقته، وين يلّاك؟" قال الرجل.

"الْداخل" قالت الفتاة وسارت أمامه إلى وسط الحوش.

"منو يا نوّارة؟" جاء صوت امرأة

"أني يا عرفتي" قال الرجل

جلس الرجل في الركن المقابل للسقيفة على مندار، تحت دالية عنب. خرجت ثلاث نساء صغيرات، أقدمت أكبرهنّ إليها، مسكت يدها وقادتها إلى مندار آخر على يمين السقيفة. تحسّت يدها، كانت عرقانة.

"هاتي فرّاشيتك، حطيها اهني جنب المندار" قال لها

جلست على المندار، وبان وجهها وجسدها، كان الرجل الذي يرتدي فرملة لالاجا يتابع من بعيد.

"يا خالق الإنس والجن، ما قنينتها!" قال الرجل

من الطابق الثاني، نزلت عجوز ببطء شديد الدروج، تسندها امرأة صغيرة السن. جلست على الأريكة المغلفة بالقطيفة الحمراء، أمامها طاولة دائرية فوقها عالة الشاهي ودورق ماء ومروحة خشب. اقترب احميدة في فرملة اللالاجا، مبتسماً، قبّل يدها، وملأ كأساً بالماء، ثم قدّمه لها، ووقف ينتظر.

"مرحبتين بيك يا بنيتي!" قالت العجوز

"تعالي قرّبي نشوفك، الشبح راهو بلهون!"

قامت عيّادة حتى وقفت أمام العجوز، وراءها يقف بو فرملة لالاجا مبتسماً.

"شن سماك؟"

"سماي عيّادة"

"جابك احميدة؟!"

"إيه، من لنقار"

نظرت العجوز إلى بطن عيّادة، تغيرت ملامحها، كأنها مرة زعلانة ومرّة فرحانة.

"باهي تعالي ركبيني فوق لداري يا عيّادة، ما نبيش حد يجي معانا."

أخذت عيّادة بيد العجوز وصعدا معاً الدروج، حتى وصلا إلى باب، قالت لها افتحيه وادخلي.

قفلت عيّادة الباب كما طلبت منها العجوز.

"اسمعي يا بنتي، نعرف إنك بين روحين، وخليني نقولك إنت وين توّا. هذا حوش يجوه التريس، باش ينسوا همومهم. ما فيش حد ما عنداش همّ"

لم تجب عيّادة، فقط وقفت ترتعش.

"قدّامك طريقين، لازم تختاري واحد منهم، لاوّل، اطّيحيه، وهذي مقدور عليها، كان تبّي. الثاني، تراجي لين تولدي وتربيه وحتى هذي مقدور عليها. لكن أيّا كان اللي بتولديه، ما تقوليلاش إنك أمه."

"فكّري على مهلك، ما تستعجليش"

دقّت على جرس صغير في إيدها، انفتح الباب، ودخلت امرأة صغيرة السن.

"شن يا إيلّاي؟!"

"خودي عيّادة معاك، خليها تسكن في الدويرة الصغيّرة اللي بحدا دارك. هي اليوم أختك، وإنت مسؤولة عليها"

خرجت عيّادة ومنذ تلك اللحظة تغيّرت حياتها كليّة. بعد أشهر أنجبت بنتاً جميلة، أسمتها سالمة، لأنها سلمت مرتين من الموت. ومثلما أخبرتها العجوز، لم تقل لها أنها هي أمها، بل حكت لها قصة العجوز القابسية التي جلبتها ذات ليلة وتركتها.

صارت عيّادة بذكائها ومعاملتها الحسنة مع الجميع، محبوبة، وخاصة من العجوز كبيرة المكان.

علّمتها كلّ اسرار المهنة، ومخاطرها.

أصبحت بعد عدة أعوام هي التي تدير المكان، قامت العجوز الكبيرة بالاعتناء بسالمة.

لم تحرمها من أيّ شيء تريده، تأخذها معها إلى السوق وإلى حمّام درغوت. تحكي لها القصص والحكايات ويضحكان معاً.

كبرت سالمة، وكبرت العجوز، وكبرت الدنيا، وتغيّرت أحوال الناس.

كانت سالمة تحب الحوت، فعلّمتها العجوز جميع أنواع أكلات الحوت، لكن سالمة عشقت أكلة الحرايمي. حتى صارت العجوز لا تأكل الحرايمي إلا من ايدين سالمة. وأوصت العجوز الرايس عثمان بمهمة توصيل الحوت كل أسبوع مرتين ثلاثة على الأقل إلى الحوش. وهذا ما استمرت عيّادة القيام به بعد رحيل العجوز الكبيرة عن الحياة.

قبل أن تموت العجوز، نادت على عيّادة، قالت لها:

"وصيتي ليك يا عيّادة، ما تخليش سالمة تخدم في مهنتنا، احلفيلي توّا قدّامي!"

"والله لو كان نموت ما نخليهاش تخدم!" قالت عيّادة وهي تحضن العجوز بقوة.

المصروب

طوال الثلاثة أشهر التي قضاها المصروب في معهد البوليس في جنزور لم يأت أحد من أسرته لزيارته، زاره الدنجال، الدحداحي، الدحّاي، الميلودي والزرباز. كلّ جماعة الركّابة زاروه. حتى الوالي جاءه. لا يزال يذكر ذلك اليوم من شهر يونيو. الطير يطيح من السماء من شدة الحر، قال خليفة بونجورنو " تقول مقعمز في كوشة"

حين أبلغه الشاويش مسعود أن لديه زيارة، استغرب كيف يأت أحد في مثل هذا الحر.

زادت دهشته أكثر حين لمح الوالي جالساً تحت السرولة القريبة من بوّابة المعهد وقفّة سعف أمامه.

نهض الوالي بمجرد ما رأى المصروب الذي كان يرتدي فرعة وكاناتيرا ومحسّن قرعة.

"أوه! مصروب، كيف حالك؟"

"عمي الوالي، غير شن جابك في هالطليقة؟!"

تحسّس الوالي بيده كتف وذراع المصروب

"شوره يتعبوا فيكم؟"

"هذا علاش سموها دورة مركزة، هاهاها"

"علاش متعّب روحك يا عمي الوالي؟"

انتبه الوالي إلى القفة القابعة أمامه فانحنى والتقطها قائلا للمصروب:

"لا تعب، لا يحزنون، جبتلك كرموسات بيتر، قالوا من الجميل، حصّلتهم من سوق الظهرة من واحد عجيلي، كولهم فيسع قبل ما يخمروا"

" تعرف يا عمّي الوالي، تقول تقرا في الغيب، امبارح حلمت ناكل في كرموس البيتر، لكن كانوا خضر مش سود!"

"تعرف شن قال الميلودي في البيتر؟"

" قال البيتر زي الصبية اللي كيف بلغت، اتذوب ذوبان"

" كيف حاله عمي الميلودي، ليّا مدّة ما ريتاش؟"

"يسلّم عليك، وبعثْ عماي ستيكّة كرافن سبسي القطوس، قلتله اشريلة غرياني والا لبدة، لكن الميلودي قال انّك ولّيت معاش بتاع غرياني والا لبدة"

"بارك الله فيه، خير من البو"

جلس أمام الوالي وبدأ يأكل البيتر بروحه.

"سمعت؟ الدحّاي انكسرت رجله"

"صحيح طاح من نخلة البرناوي، رجله مانكسرتش، انشعبت شعبان، في سبيتار شارع الزاوية حطّولة زبس"

"بدي منظره يضحك، رجل فيها شبشب ورجل فيها زبس، الميلودي عرض عليه يشري منه فردة شبشب"

" ليه أكثر من عشرين يوم وما يبيش ينحي الزبس! كلّ يوم يجي يقعمز على الرّكابة ويدخل في عصا تحت الزبس وما يبطلّش حكّان لين قالّه الميلودي:

"يا خوفي آمته تنحّي الزبس ما تلقاش رجلك"

رد عليه الدحاي:

"خرف يا ميلودي، تحسابني نحكّ في الهوا. تعرف أني نفكّر نوللي لسبيتار شارع الزاوية ونقوللهم يحطولي زبس في رجلي الأخرى، باش تتوازن الأمور...."

فرد عليه الميلودي بصوت ضاحك:

"تعرف إنت وين يحطّولك الزبس؟ إيه نعم! بين رجليك، على الأقل يكون للحكاّن فايدة"

قهقه المصروب إلى أن سقط على قفاه

"أني مش عارف غير منين الميلودي يلقا في الكلام!"

انتظر الوالي إلى أن سكت المصروب، راح يراقبه وهو يأكل، ثم سأله:

"أني جايك في خدمة يا مصروب"

"تفضل يا عمي الوالي، رقبتي سدادة"

اقترب منه خافضا رأسه وعيناه تنظران إلى الأرض، ثم قال له بصوت لا يكاد يسمع:

"إنت تعرف يا ولدي أني عمري توا قريب في الخمسين، ما تزوجتش، علاش ما صارش نصيب، يا سيدي ما نطولش عليك، قلت اللي يعرفك خير مللي ما يعرفكش، هكي عالمفروش نبي ناخد أختك امباركة.."

توقّف المصروب عن الأكل، أصبح طعم البيتر كالعلقم. تململ في جلسته، التفت وراءه يود لو يراه الشاويش مسعود، يطلب منه الرجوع إلى العنبر، لكنه لم ير أحدا سوى خليفة بونجرنو ينشر ملابسه أمام العنبر.

لم يتكلم المصروب، لم يستطع حتى النظر في عيني الوالي، أخد عوداً قريبا منه وبدأ ينبش التراب.

"شن رايك يا مصروب؟"

"في شنو يا عمي الوالي؟"

"امباركة زي بنتك، قعده صغيرة"

"خيره انربّيها زي بنتي.. بعدين هذا مش عيب!"

"سامحني يا عمي الوالي نحسّ في بطني تحرّكت، شوره الكرموس البيتر، معليش نبّي نمشي للعنبر، نشوفك على خير"

هرول المصروب إلى العنبر، لم يتوقف عند خليفة بونجورنو الذي كان يراقبهما من بعيد.

لاحظ أن الوالي لم يغادر المكان سريعا فقد بقي جالسا، أمامه قفة السعف، على وجهه ملامح الحيرة والغضب.

لم يستطع بونجورنو التأكد من ذلك، فالمسافة بعيدة، لكنه قال في نفسه:

"في الأمر إنّ" وتابع نشر ملابس التدريب التي بهتت ألوانها.

الدحّاي

ظلّك درب إلى المدينة الغافلة، أمام الشمس معّلقة ساعات الوقت الهارب، الأحمر هو سيد المكان.

لا تنهيدة الطفل القادم من الغابة، لا رعشة شفة المرأة الواقفة خلف الباب، يمكن أن يشغل الكيميائي عن متابعة شهيق المعدن المحموم. ثوبك جسد الأرض، موسيقاك صمت الأشجار المطلة من نافذة البهو.

لا تتردد، تقدم وقس وميض الشوق في القنديل. عِرق الخشب في الرحى. سيمر التاريخ الليلة على قبة، الأحمر فيها هو السيّد المبجل. ما كان لن تذروه الريح ولو جاء سليمان بملكه وملكوته. ما كان سيبقى هنا في هذا القلب المحيّر، سيخفق بهفات الزمن وخيباته، لن يتراجع عن النظر في عيني النار وراء التل أو وراء الخيمة أو وراء القصر. ستبقى القدمان ثابتتين على الأرض بملحها وحلوها. الساعة غابت في هدوء الليل كتاب مصطفى الرافعي مستلق هناك على الكرسي الخشبي قرب السرير. تذكّر كلام الدحداحي: الكراسي للطلاينة أما الوطا لينا"

ليس تاريخ ما مضى ما يشغل بالي، بل كيف يمكننا كتابة تاريخ جديد لهذه البلاد، التي لم تخرج من الجهل والفقر والمرض والجوع؟ الذين يأتون إلى بنغازي يمكن تقسيمهم إلى ثلاث فئات: طلبة يبتغون الدراسة في الجامعة الليبية، هؤلاء من كلّ المدن الليبية، معظمهم يسكنون في الأقسام الداخلية الموزعة في وسط المدينة وضواحيها، فئة أخرى، الرجال الذين لم يجدوا ما يفعلونه في قراهم وبلداتهم ومدنهم. أما الثالثة، الرعاة الرحّل الذين خسروا حيواناتهم وأرادوا حياة أفضل لأبنائهم.

قراءة الكتب سهلة، تعودت عليها منذ سنوات، لكن قراءة الناس، صعبة، زي ما قال الميلودي والدحّاي حاط كتاب تحت باطه:

"توّا يا دحّاي تعرف شنو أخطر من الكلمات؟"

"شنو؟! يا عمّي الميلودي؟! ردّ الدحّاي بعد أن طلّع سبسي من جيب السروال المعكرش

"الكلمات اللي تخشّ من الودن هاذي وتطلع من الودن هادي" قال الميلودي

"بعدين قولي إنت من آمتى بديت تسبّس؟ وإلا من يوم ما خشّيت كتّاب الروميّة؟!"

أضاف الميلودي، ثم التفت إليّ قائلا:

"خلّي الكلمات والمعرفة في قلبك، راقبها راهي تتدحرج في القلب زي الكوشينيتي"

الوضع الجديد الذي أحتاج مني وقتا طويلا حتى أتأقلم مع كان وجود طالبات معه في الفصل. طالبات مؤدبات، عفيفات، ذكيات، محتشمات. أخترت أن أجلس في الصفّ الأخير، فقط لأن واحدة منهن لمست شيئا في قلبي. هل هذا الذي يسمونه الحب؟ لكن

هل يحقّ لي الإحساس بالحب؟ ليس قبل أن أتخرج من الجامعة ونخدم على روحي، نبني حوش، بعدين نتزوج! أرتحت إلى هذا الشعور والحديث مع نفسي، لكن عيني كانت دائماً تأخذني إلى أين تجلس بشالها البنفسجي وقميصها الأبيض الذي كأنها أخرجته من عين الشمس.

العركة

"غاب الدحّاي وجاب" قال المصروب حين وصل إلى الرّكّابة قدام دكّان الميلودي قبل المغرب بشويّة. كان لا يزال مرتديا لباس الشرطة ومعلّق رتبة شاويش.

"بالله شريبة إمّيّة، يا عمي الميلودي، ريقي ناشف"

"شن صار، خيرك كالح وشكلك ما ارقدتش ليك يومين؟!" سأل الميلودي

"خلّيها في سرّك! البارح كنت شاد توكة في المركز، قريب نصّ الليل، جابوا جماعة سكارى من عرس، مضروبين، كان بينهم الدحّاي، الدحّاي سبب العركة يا عمي الميلودي، ماشي مداير روحه عبد الوهاب!"

"باهي وبعدين؟"

"يغنّي في: بفكّر في اللي ناسيني، يمشي واحد يقولّه، سكّر فمّك، غنيلنه، طيرين في عش الوفا!"

"باهي بعدين؟"

"يفنّه بشيشة نازيتّه على وجهه يخليهوله زي الخريطة"

"نعرفه الدحّاي ما تباتش فيه، باهي هو وين توّا؟"

"حولناه عالنيابة، حبسوهم خمسة أيام ثانية"

"تعرف يا مصروب هذه ما يحلهاش غير الفيزقا"

كأن الفيزقا كان يسمع فيهم، جاء وقد ربط حول رأسه عصابة حمرا وشاد في إيده مسواق.

دخل، جلس بجانب الدحداحي الذي لم ينطق بكلمة، اكتفى بمسك الجاكيتة المحطوطة على اكتافه.

"عرفتوا شن صار للدحّاي؟" قال الفيزقا

"توّا كيف خبرنا المصروب."

"ولا يهمكم، مشيت لي أمّاليهم واحد واحد، قلتهم كان ما يتنازلوش للدحّاي، انقطّع خشومهم كلّهم." "غدوة بالكثير يروّح الدحّاي، كان هذا ليلتهم حرفه"

جاء الميلودي حاملاً سفرة الشاهي، أعطى الطاسة الأولى للفيزقا، ونحن ننظر إليهما في محبة كبيرة.

قام الدحداحي، سوّى من سترته على كتفيه، ثم صاح:

"إيّحْ، كان صار منّه الدحّاي!" ثم مضى دون أن يلتفت وراءه.

علي كالاميطة مات

البارحة مات علي كالاميطة، وهذا الصباح مات بوشعيرة. كانوا راسين في شاشيّة، ماتوا، دفنوهم جنب بعض. كان الجامع ممتلئاً بل وقف الكثيرون خارج الجامع. حدّق الزرباز في ساعته الجديدة وهو يقف بجانب الدحداحي، الذي كان صامتاً، يبدو عليه الحزن الشديد.

"المرحوم علي كالاميطة كان زي بوي" قال الدحداحي

"خلّاني نتعلّم صنعة تصليح البشاكليط"

"رفعني للطلياني اللي في شوكة شارع بوتشيني، وكلّمه عليّ"

"كنت حتى الكندرة ما نكسبهاش، جابلي مداس من سوق العتق وعطاهولي: والله يا زرباز، قاعد داسّه لتوّا!"

"قالوا لقوه ميت في الكنيف، حاشاك" قال الزرباز وهو يتأكد من حزام ساعته الجديدة.

"هو كان عنده القرينة، هذي ما يعرفهاش غير أبي وبوشعيرة"

"قالوا، البابور آمتى يجيبوهوله، يتصلّح قبل حتى ما يمسّه"

"يا راجل اتحشمْ على روحك، الراجل كيف دافنينه" قال الدحداحي غاضباً، ثم انعطف جهة اليسار مبتعداً عن الزرباز الذي قرّب ساعته الجديدة من أذنه.

الوالي

لا يعرف أحد من سكّان المنطقة متى جاء الوالي إليها. الميلودي مرّة قال:

"أني أوّل مرّة شفته، كان يسبّس تحت السرولة، سروالة مشرّك ولابس معرقة إمّسخة، ناديتة واستسميته، قالّي سماه عمر بن عبد الله من بدر بتاع الصيعان."

كان يخرج في الصباح الباكر، إلى أين لا أحد يعرف! يرجع بعد المغرب بقليل، يدخل برّاكته، يطلّع القازة، ينظفها ويشعلها بعود كبريت ينفخه بقوة مطلقاً ابتسامة غامضة. بعد ذلك يدخل إلى برّاكتة، وحيدا، لا زوجة، لا ولد. ذات مرّة سأله محتار الزرباز وكان الوالي قد أخذ طاسة الشاهي من الميلودي على الركابة:

"شورك مقطوع من شجرة، يا عمي الوالي، ما يزور فيك حد؟!"

فاجأنا سؤاله، وشعرنا أنه إهانة كبيرة، كان الميلودي ينظر في غضب شديد نحو الزرباز، الذي يبدو أنه لاحظ الخطأ الذي ارتكبه بحق الجلسة في حق الوالي والميلودي، فرفع يده ملوحاً وهو يضحك:

"يا عمي الوالي ما تفهمنيش غلط، أنا بس شافق عليك، راهو بنقولّك، كان ما عندكش ناس، إحني ناسك"

انفرجت أسارير الميلودي وأحسسنا بأن الزرباز رزرزْ كويّس، فقلنا جميعا بصوت عال:

" إحني ناسك يا والي."

لم يقل الوالي شيئاً، قام، أعطى طاسة الشاهي الفارغة إلى الميلودي، ثم وقف ومضى بعيداً عنّا.

"يا فرخ النبّة، ما لقيت ما تقول للراجل؟!"

صرخ الفيزقا بأعلى صوته في وجه الزرباز الذي ركض أيضا بعيداً عنّا.

"تعرفوا منو اللي سمّاه الوالي؟!" سألنا الميلودي وهو يتكئ على ذراع الباب

"هذا يا سيدي بن سيد، قول قريب شهر بعد ما شفته أول مرة واقف تحت السرولة يسبّس، جي للدكان، مقوزل، لابس بذلة عنّابي، وكندرة فيلالي، وقرواطة مزلزة، وقف على طول الباب، شافله خالي بالناصر، قالّي: منو الوالي هذا اللي زارنا اليوم؟!"

ضحكنا جميعا وقلنا،

"والله بالناصر عنده حق، زي الوالي لا تعرفه باهي لا تعرفه شين."

برّاكة الوالي، صغيرة مقارنة بما حولها من البراريك، لكنها أجملهم بلا منازع! فهي تطلّ على دكان الميلودي من جهة شوكة الهندي الكبيرة، بابها شرقي، الظل لا يفارقه والذي يتشارك فيه مع السرولة التي يحبّها الدحداحي كثيرا. البرّاكة أيضا نظيفة، لا تتجمع الأوساخ أمامها أبدا، كأن يدا خفيّة تعتني بها. أمّا عن الداخل فلا نعلم عنه شيئا إلا ما خبرنا به الفيزقا، الذي أدّعى أنه دخل إليها ضيفاً على الوالي ذات ليلة ماطرة، شديدة البرد.

قال لنا الفيزقا:

"هاديك الليلة، كنت مروّح موخّرْ، كانت المطر خيط من سمي، أني كنت ضاربها للجمام، نازيتا حقّانية وكاكاوية الهنشير، اللي ما تود بيها غير الحبيب والصاحب القريب، المهم، شافني الوالي ندّعدع قدام براكته نغني، احبابنا يا عين راحم معانا، طلعلي وقالي، خشْ يا فرخ واسكت. اشبحتله وخشّيت الداخلْ.."

"باهي، بعدين؟!" صحنا فيه

"تقول خشّيت قصر! الكليم العربي محطوط عالأرض، المندار بلحافه ومخدته، صندوق أحمر عليه خطوط بيض من فوق لالوطه، برّادة زمنية مليانة إمّية، الكانون مليان جمر حطّ عليه برّاد الشاهي وأني نشبح وساكت! وخلاص!"

"خلاص شنو! شن صار بعدين؟"

"قالّي سرْ، مش حيسمعه مني أيّ مخلوق لين نموت."

أخبرنا المصروب عندما كان في معهد الشرطة في جنزور، بزيارة الوالي له وطلب يد أخته امباركة للزواج. قال له انتظر إلى أن أتخرّج من المعهد.

لقد انتظر الوالي لكن ليس طويلاً!

امباركة

امباركة، أخت المصروب، شابة قرابة الثامنة عشر من عمرها، تسكن مع أخيها وأمّها المرأة الطيّبة، الصالحة. لم تذهب إلى المدرسة، بقيت في البيت، تعلّمت من أمّها الطبخ وتفوقت عليها، خاصة في طبق الحرايمي! لم أذق في حياتي حرايمي مثل الذي أكلته في حوش المصروب، أتذكّر كان الرعد يرزم في الخارج، والمطر يصب. الحقيقة كنت جائعاً جداً ذلك اليوم، عندما عزمني المصروب على الغذاء لم أتردّد في الموافقة. دخلت المربوعة الصغيرة، مدّلي المصروب سبسي، أخذته، لم أشعله، تركته إلى ما بعد الغذاء. كانت رائحة الحوت قوية ولذيذة جدا، تأتي من السقيفة التي تشه عنق دجاجة عمي بوشعيرة.

"شورة غداكم اليوم حوت؟!" سألت

"حرايمي، سردينة بتاع فجر اليوم من باب بحر، بإيدين أختي امباركة، أحسن واحدة تطيّب الحرايمي!"

كان الحرايمي مثل ما قال تماماً، امباركة أحسن من يطيّب الحرايمي في الموندو كلّه!

كنت عندما ألتقي بها في الشارع تبتسم وتحييني برأسها، ثم تمضي في طريقها. لم أنتبه إليها، هي أخت أعزّ أصدقائي، أعتبرها مثل أختي التي لم تنجبها أمّي.

ذات يوم، شممت رائحة حرايمي في حوشنا، رائحة تشبه تلك الرائحة في مربوعة المصروب.

سألت أمي إن كانت هي التي قامت بطبخ الحرايمي، فأخبرتني أن امباركة أحضرته إلينا قبل الظهر، قالت أمي مبتسمة في وجهي:

"امباركة قالت بالصحة والشفي، حرايمي من القلب!"

"شن نردولها في صونيتها؟!" سألتني أمّي بعد أن قضيت على الحرايمي مع خبزتين محوّرات ساخنات

"ما نعرفش!" أجبت

"باهي شن رايك كان تجيبلنا بكلاوة من روبرتو الطلياني اللي في الظهرة؟"

منذ ذلك الوقت كلّما شممت رائحة حرايمي تذكرت بكلاوة روبرتو الطلياني.

باءت كلّ محاولات أمّي وكلّ اطباق الحرايمي في جعلي أنظر إلى امباركة نظرة غير أنها أخت صديقي المصروب.

الدنجال

أخبرني الميلودي أنّ خليفة الدنجال بعد أسبوع سيسافر إلى الجنوب.

خليفة لم يكن لقبه الدنجال، كانوا يسمّونه ولد الساساية. هو الابن الوحيد لخالتي عيشة. امرأة طويلة دائماً تمشي، على ظهرها صرة، تكبر وتصغر. كنّا نمشي خلفها صائحين: "عيشة راجل." لم تكن تغضب منّا، بل كانت ترمي نحونا قطع حلوى شاكار. فنتركها ضاحكين. كانت كلّما التقيت بها وحدي في الشارع، تستوقفني، تسلّم على أمّي، وتقول لي رد بالك من خليفة، راهو قزّون! كنت أحرّك رأسي وأقول لها سأفعل ذلك طوال حياتي يا خالتي عيشة.

خليفة أصغر مني بعدة سنوات، نشيط، خفيف، قال عليه الميلودي مرة:

"خليفة مندوه، وين تطلبه تلقاه." فعلّق بالناصر من داخل الدكان:

"منو هذا المندوه؟ خليفة الدنجال؟!"

منها لم ينادى عليه إلا بخليفة الدنجال.

خليفة ترك الدراسة مبكراً، تحصل على الابتدائية وعين عاملا في مصلحة الزراعة في سيدي المصري. هذا العمل عاد علينا بالكثير من الفوائد. لقد كان يحضر البرتقال، الخوخ، العوينة، والبرونسي إلى جلستنا على الرّكّابة. كان يأتي ما بين العصر والمغرب، حاملا شكارة دقيق خمسة زيرو، على ظهره، ثم يقف أمامنا دون أن يضعها على الأرض.

ينتظر إلى أن يخرج الميلودي حاملا طاسة شاهي خضراء بالنعناع، يقدمها له قائلا:

"تفضل يا ملك الفواكه في شمال أفريقيا والحمادة الحمرا!"

نضحك جميعا ونهجم على ما جلبه لنا من لذيذ الفاكهة. أحيانا تكون الشكارة مليانة سبول. عندها يتطوع الدحداحي بشويها، وهو يغلق عينه اليمنى تفاديا لدخان السبسي الذي لا يفارق ركن فمه.

خليفة عاش وحيد أمه، قصير القامة لا يتجاوز المتر، حتى بعد أن رَبّى شنابات مازادش طوله. لكن الشنابات جعلته يبدو كبيرا وقويّاً. في المدرسة الابتدائية كان يسمونه الفزغولة، كان يتباهى بقدرته على طيّ جسمه فوق سطح المقعد. هذا شجّعه على أن ينضمّ إلى فريق الجمباز في المدرسة. أذكر أن في مسابقة بين المدارس في طرابلس، وكنّا نحن رفقاء الرّكّابة حاضرينها كلّنا ما عدا بالناصر الذي قال لنا ونحن نستعد للذهاب إلى المسابقة:

"قولوله جيب الكاس يا دنجال وعندي ليك نص شكارة كاكاوية."

خرج خليفة في لباسه المكون من فانيليا بيضة مكتوب عليها اسم المدرسة، وفرعة بيضة، كان في أول الصف. عندما جاء دور الدنجال، كنّا نصفّق بقوة نضرب بأقدامنا على الأرض الصلبة، نهتف:

" جيبها يا دنجال، جيبها...!

التفت نحونا وغمز بعينه، انطلق إلى أن وصل بالقرب من الدحداحي الذي كان يمسك بعلم أبيض، همس شيئا في أذنه، ثم عاد إلى مكانه، قدّم عرضا لم يقدمه أحد من المشاركين في

المسابقة. فازت المدرسة ببطولة الجمباز تلك السنة، فاز الدنجال بأن حملناه على أكتافنا إلى حيث ينتظره بالناصر بنص شكارة كاكاوية.

سألنا الدحداحي عن الذي همس به إليه الدنجال، قال: قالّي، كان طِحطْ ما ترفعنيش لحوشنا."

خليفة الدنجال الذي أشبعنا بالفواكه، كان أيضا حكّاء عظيماً، أشبعنا بحكايات كثيرة.

حكى لنا مرة عن رئيس العمال في مزرعة سيدي المصري:

"رئيس العمال بتاعنا، قريب يوصل الستّين، ومازال ما تزوجش. أولامستين، واحني نشربوا في طاسة شاهي مرة دارها العبد لله، قالي تعرف يا خليفة، لو كانت تزوّزت راهو عندي ولد من عمرك!"

"ساولته باهي علاش ما تزوزتش يا عمي بوعجيلة؟ -هو كان سماه بوعجيلة، على خاطر أمه زارت سيدي بوعجيلة وهي بين روحين، دعت كان عاشلها هذا تسميه بوعجيلة- ."

"أني أمّي جت من نسمة، وأني عمري عشر سنين، سكنا في اللوّل في دار في الأربعة عرصات، بعدين في يوم نضت الصبح ما لقيتهاش، دوّرت عليها في كلّ مكان، مالقيتهاش! عمري عشر سنين، جعّان، قاعد في وسط الحوش نعيّط، جتني جارتنا الفزّانية، راجلها يخدم في كوشة خبزة في سوق الحرّية، خدتني في حضنها، رفعتني لدارها، رقدتني مع صغارها."

"من يومها يا خليفة، حلفت ما نتزوزجش ولا نجيب صغار."

صرخ الميلودي:

" ينصر دينها الفزّانية، طلعت خير من أمّه، لكن ممكن أمّه كانت مظلومة، على كلّ حال البيوت أسرار با أولادي، ما تغرّكم الحياة، نوض يا دحداحي اشوينا كمشة سبول، وإنت تمص في السبسي زي منو يمص في الليم!"

الحدّاد

خليفة، آه يا خليفة! كيف أنسى وقفتك معي حين كنت أستعدّ لامتحان الثانوية العامة. تلك السنة الصعبة، المريرة، التي لم أستطع فيها الذهاب إلى محل المرش في سيدي بومشماشة. أنت قلت لي، أن أركّز على دراستي والاستعداد للامتحانات، ألا أحمل هم مصاريف البيت. أنت كنتَ فعلاً كما وعدت، لم ينقص شيء عن الحوش، بل كنت تقول لأمي هذه الأشياء أرسلها ابنك. كيف أنسى الزردة اللي درتهالي وعزمت الجماعة كلهم، مشينا للشرشارة، في ترهونة. أصر الدحّاي أن يطربنا بأغانيه الجديدة التي يقلّد فيها عبد الحليم حافظ. كذلك الفيزقا قام بإعداد ألذ بورديم. أما الميلودي، اكتفى بالمراقبة والفرح ظاهر على وجهه. هل تذكر كيف اكتشفنا أن الدحداحي قد أحضر معه سنارة، يريد اصطياد الحوت في ترهونة!

مختار الزرباز لم يتوقف عن الصياح

"تعالى يا دحداحي، آهي أمبوكة، آهي مناني.."

كنا نضحك ونضحك! كيف أنسى يا خليفة يا صاحبي؟!

ألست أنت الذي اشترى لي أوّل بذلة في حياتي لأذهب إلى الجامعة؟!

لماذا غبت كل هذه المدّة؟ أين أنت الآن يا صاحبي؟

الرسالة الوحيدة التي وصلتني منك، عندما كنتُ في السنة الأخيرة في كلية الآداب.

لم تقل الكثير، فقط: عزيزي، أرجو أن تكون بخير. سعيد أنك على وشك التخرج من الجامعة. أنت تستحق ذلك ونحن نستحق ذلك. لا تنظر خلفك يا صديقي. أخوك

خليفة الدنجال

هل تعلم يا خليفة بأنني ما زلت أحتفظ برسالتك. أحملها في ديزداني، دائماً.

لقد بحثنا عنك، كلّنا بحث عنك. قيل لنا هاجر إلى إيطاليا، وصار يمتلك مزرعة فواكه كبيرة هناك. أنا ما يهمني هو أن تكون بخير، إنني في انتظارك في كلّ وقت، فقط لا تنسنا!

فتاة الشال الأحمر

تسارعت أيّام الدراسة، جميعها متشابهة. ما كان يخفّف منها، وجودها معي في المدرج، تجلس في الصفّ الأول وشالها الأحمر يحيط بكتفيها. حدهم، يا لجمال الاسم! لم تفارقني صورتها، أنا القادم من مدينة تبعد أكثر من ألف كيلومتر على بنغازي. لا قريب ولا صاحب. غفير القسم الداخلي من ككّلة، رجل باهي وطيّب. مرّة مرّة يعطيني حبل كرموس جبالي، يقولّي:

"خوذ ما تتحشّمش، كرموس خوالك"

لم أكن أحب الكرموس من قبل، لكني بدأتُ أجده مقبولا. أمس وصلني صندوق من طرابلس. أحضره سائق شاحنة، إلى عمارة القسم الداخلي. كُتب على الصندوق: يوصل ويسلّم إلى خليل الحدّاد من أخيك خليفة الدنجال.

عندما فتحته وجدت فيه: كيس مليان بسيسة، كيس مليان زمّيطة، وستيكتين دخان مكتوب عليهم: من الدحداحي. كذلك وجدت: سورية وسروال عربي، وعشرة جينه.

في الكلّية، تحت شجرة خروب كبيرة، كنت آكل حبيبات الكرموس المجفّفة، حين سمعت خلفي صوتاً يقول:

"اللي يشارك ما يندمش!"

التفت ورائي، لم أصدق عيني، حدهم تتكلم معي!

"الحبل وصاحب الحبل كلهم ليك يا حدهم"

مدّت يدها، تناولت حبة كرموس ثم جلست بجانبي.

"إنت غرباوي، صح؟!"

"صحْ"

"ينصر دينك يا دنجال"

قلت في سرّي، ثم حدّقت في وجه حدهم، حبيبتي حدهم.

في المساء، ذهبت إلى محل احميدة فاصوليا، لأقدم عشاء فاخرا لنفسي ولأشرب قهوة بالقرب من ضريح الشهيد عمر المختار. هناك عند احميدة فاصوليا، كنتُ قد تعرّفت بعظيّم، الشاب الذي يعمل هناك. هلّل ورحّب بي من بعيد حين لمحني قادما"

"خليّل، يا حدّاد، يا را، هذي ليك أنت بس، أحسن نص بالفاصوليا والهريسة العربية"

وقفتُ بجانبه، قائلاً:

"خوذ واحدة على حسابي وزيد معها زوز رنجاطا مصقعات"

"شنو، معوّمة اليوم؟!" صاح عظيّم مبتسماً

"اليوم، أحلى يوم يا عظيّم، فيه رأيت الحبيب!"

"عليّ الطلاق إلا تحكيلي" ردّ عظيّم

عندما خفّت زحمة المكان، جاء وجلس بجانبي. أخبرته بكلّ ما حدث مع حدهم. بعد صمت

نهض من مكانه وقال:

"عليّ الطلاق الليلة سكرتك عندي"

"لكن أني ما نشربش، يا عظيّم"

"أني نشرب في مكانك، هيّا نوض نمشو" صاح عظيّم مبتسماً

صرنا أنا وحدهم نجلس بجانب بعضنا البعض، لكن حبال الكرموس قريب تكمل!

"بعد ما تكمّل قرايتك في بنغازي، وين تريد تمشي؟" سألتني

"لطرابلس" أجبت

"شن تريد تخدم في طرابلس؟" سألتني

"معلّم" أجبت

"هل تقبلين بي زوجا لك؟" سألتها

رأيتُ المفاجأة والدهشة في عينيها، واصلت حديثي:

"أني نبّيك زوجة بالحلال، نبّيك تمشي معاي لطرابلس، شنو رايك؟"

"ما زال قدامنا أربع سنوات، بعد نهاية العام نرد عليك ونقولك"

سكتت، وسكتت، قامت، وقمت. هي ذهبت في اتجاه وأنا ذهبت في اتجاه آخر.

"وينك يا عظيّم، هذا يومك!" صرخت عالياً في قلبي وأنا أركض كما لم أركض في حياتي من قبل.

سالمة القابسية

الفيزقا أحبّ سالمة القابسية من كلّ قلبه، فهي تشعره أنه رجل وقادر على كلّ شيء. لكن كيف سيكون رأي جماعة الرّكّابة؟ كيف سيتقبلونه إذا ما تزوّج واحدة تسكن في حوش عيّادة؟ ماذا ستقول أمه؟ هو يعلم أن هذا الحب ميّت، أنّ هذا الحب طريقه مسدود. لكنه يحبها ولا يستطيع الفراق عنها. ألم يقل الميلودي ذات ليلة:

"القلب تصهده لفتة، تحييه بسمة، وتبعده كلمة، القلب قلّاب، لا تحكمه حكومة بنواشينها، لا تقدر تحمله أمواج البحر الهايج"

صدقتْ يا ميلودي في كلّ كلمة قلتها. أطلّت من المشربية، نظر في عينيها، وقال:

"انحبّك يا سالمة، احبّك لين نموت!" ضحكت سالمة، ونزلت تجري فتحت الباب.

"تفضّل يا سيد التريس"

"كيف حالك يا حبّي؟"

"زي ما تشوف من الصبح ما فيش راحة"

أحسّ بغصّة في صدره، هو يعلم ما تعني. اليوم الجمعة، وجماعة الريف مسوّقين لطرابلس، قبل الظهر يكثر الزحام والدهك!

"أمتى بتبطّلي السراكة يا سالمة؟"

"أمتى يدير ربّي طريق" "شن جبتلي اليوم؟"

"حويتات اللي تحل العين المغمّضة" "حرايمي الوالدة"

"كيف حالها الوالدة؟ رفعتها لطبيب العيون؟"

"قال عندها الشَعرة في عيونها من التراكوما"

لم تعقّب سالمة على كلامه، اكتفت بالجلوس بجانبه، هو يحيطها بذراعه الطويلة. استنشقت رائحة عَرقه، تنفست بعمق، ثم قالت:

"آمتى بسْ يا فيزقا؟" لم يقل شيئا، ضغط على يدها، قبّلها طويلاً بينما دموعه تسيل على خدّه.

بعد المغرب بقليل خرج من بيت سالمة، منهكاً، حزيناً. صعد نحو باب بحر، ثم نزل جهة الميناء، وقف أمام البحر صامتاً يحدّق في الفراغ.

"خيرك يا فيزقا واقف بروحك في الليل؟" فاجأه المصروب الذي وقف بجانبه دون أن ينتبه إليه.

"الدنيا صعبة يا صاحبي على الزوّالي واللي ما حيلته شيء!"

"شن بناخذ منها يا فيزقا غير الشقا والتعب"

رد المصروب في هدوء شديد، وحدّق هو أيضا في الفراغ.

مركز باب بحر

منذ أن عُيّن في مركز باب بحر، حياة المصروب صارت أكثر استقراراً. بمرتّبه أستطاع شراء قطعة أرض بالتقسيط في تقسيم بطاطا في الهضبة الشرقية. هو الآن رئيس عرفاء مقوّم، تقدر تقول يحكم في المركز كلّه. أوّلا لطيبته وحسن سيرته مع رؤسائه وأفراد الشرطة، خدوم، مندوه زي ما يقول الميلودي. أخته امباركة تزوجها فرّارة الزاوي، بعد تخرجها من معهد المعلمات. أصبح لهما أولاد وبنات ينادونه: يا خالي. كان كلّما شعر بالوحدة ياخد كيلو بسبوسة وبكلاوة من شهريار اللي بحدا سينما الرويال، يمشي على الفيسبا بتاعه لحوش أخته، وهو يغني الجوبة بعيدة. النقيب فرّارة أول مرّة ينقلوه لطرابلس، جت نقلته لمركز باب بحر. جاء من مدينة الزاوية الغربية، كان برتبة ملازم ثاني، شاب صغير، لكنه نشيط، لا يبقى في مكان واحد خمس دقائق متواصلة. سريعاً ومن خلال المصروب عرف كلّ أزقة المدينة القديمة، والبياطسا. ثم توطدت العلاقة بينهما، حتى أصبح كثير التردّد على بيت المصروب. هناك رأى امباركة ورأته. قال في سرّه وهو في مقعده في مكتب التحقيق:

"امباركة لفرّارة وفرّارة لمباركة"

عجبته الفكرة، فخرج إلى مكتب البلاغات حيث يعمل المصروب، وجده يتحدث مع رجل طويل القامة رأسه ينزف وحاط فوطة على راسه.

"شن فيه شاويش مصروب؟"

"الراجل هذا، ضاربة بوحربة بتيندة حديد على راسه!"

"علاش تعاركتو؟" سأل فرّارة الرجل الشاكي

"يا فندي، والله أني ما درت حاجة. كنت لا بيّا لا عليّا، قدّام دكّاني، ما نندريش لين خبطتني على راسي" قال الرجل الشاكي

"يعني هكّي من غير سبب؟!" سأل فرّارة ساخراً وغاضباً

"ما نعرفش، يا فندي! لكن من قريب جمعة، جابلي بضاعة فاسدة يبيني نشريها منه، اني رفضت، قالي توا نورّيك." قال الرجل الشاكي

"يا شاويش مصروب، ابعت عبد الله كوالّي وحمد بوزقيّة يجيبو بوحربة منين ما هوا"

"بعد ما تكمّل المحضر، من فضلك تجي لمكتبي يا شاويش مصروب، خلي الراجل هذا يمشي للمستشفى يديروله تقرير طبي"

قال فرارة للمصروب وهو عائد إلى مكتب التحقيق

طرق المصروب باب مكتب التحقيق، ثم دخل، فوجد الملازم فرّارة واقفا قرب الروشن، سبسي مطفي في فمّه.

"إنعم يا فندي فرّارة، إن شاء الله خير" قال المصروب

"اتفضل قعمز يا شاويش مصروب، اتفضّل" قال فرّارة

"تعرف يا مصروب، جميلك عليّ ما ننساشّي لين نموت" قال فرّارة

"استغفر الله، لا جميل ولا هم يحزنون، يا فندي فرّارة" قال المصروب

"اسمع يا شاويش مصروب، نجيبهالك من لاخير، أني ولد ريف مش ولد مدينة، نبّي نخطب أختك امباركة"

قال فرّارة وهو يضغط على السبسي بقوة بأسنانه، ثم جلس مواجهاً المصروب الذي تفاجأ بكلامه. تنحنح المصروب، وحك ودنه، وحك راسه، ثم قال:

"الحقيقة فاجأتني باللي قلته توّا، أني ما عندي من قول فيك، بس اعطيني ثلاثة أيام نشاور فيها أمي وأختي ونرد عليك، إن شاء الله ما يكون إلا خير.

"متفقين يا شاويش مصروب، إن شاء الله خير!" قال فرّارة

في المساء ذهب المصروب إلى دكان الميلودي، كان هناك الدحداحي، الفيزقا، والعبد لله. لا حظنا صمته غير المعهود. نظر إليه الدحداحي، وهو يحرك في سبولات سمحات على النار، قائلا:

"خيرك يا مصروب، ساكت، شن فيه؟"

"ما في شيء، غير فيه ميضوع شاغلني نبي رايكم فيه وخاصة عمّي الميلودي"

دخل الميلودي إلى الدكّان، ثم خرج بعد قليل حاملا كيس كاكاوية، ولوز أخضر، حطهم قدام الجماعة.

"تفضّل قول شن فيه يا مصروب، شغلتنا؟" قال الميلودي

"يا سيدي، انتم تعرفوه الملازم فرّارة الزاوي، اللي يخدم معاي في مركز باب بحر!"

"خيره؟!" قلنا جميعاً

"اليوم ناداني للمكتب عنده، طلب إيد أختي امباركة!"

لم يتكلم أحد، فقط ساد صمت كثيف. جاء الميلودي وجلس بجانب المصروب، وضع يده على كتفه مربّتاً، ثم في صوت عميق أخّاد، قال له:

"أولاً لازم تسأل عليه، ثانياً لازم تشاور أمك وأختك، والخيرة عند الله، اليوم الرنجاطا على حسابي، آه شن رايك يا خالي بالناصر؟"

"تمْ الكلام يا مصروب، نوض جيبلنا فردتين خبزة تنور، وانت بديت قنّيطة" قال الفيزقا ضاحكاً.

لم يمر وقت طويل حتى نصبت خيمة العرس قريباً من دكان الميلودي، وأصرّ الدحّاي أن يغنّي في العرس بدون مقابل مع فرقته الموسيقية. الحدّاد كان الشاهد الثاني والميلودي الشاهد الأول. لم نر الميلودي فرحان من قبل مثل هذا اليوم، كأن بنته اللي متزوجه.

لاحظت أن الفيزقا كان حريصا على حماية العرس، وأعلن بصوت عالي:

"اللي يفسّد أو يدير أيّ مشكلة في العرس، نبيته في الجبّانة"

حضر العرس الجميع بما فيهم الوالي اللي كان متأثر هلبة وحزين، لكنه مع ذلك جاء وسلّمّ مهنئاً قائلاً

"الدنيا قسمة ونصيب، ربي يهنيها"

عرفت وقتها أنه بالفعل كان يحب امباركة من قلبه. الوحيد اللي غاب على العرس، هو الدنجال. خليفة بعد ما مشي لأوباري صارت أخباره شحيحة جداً. بونجورنو، صاحبي المقرحي، من أيّام المعهد في جنزور، قاللي:

"واحد قريبي جي من فزان السبوع اللي فات، شاف خليفة في سوق مرزق، قال حالته تبان باهية، عنده تجارة مع النيجر في حاجات ما سمّاهاش"

شعرت بارتياح كبير، وأيضا بخوف، هل أصبح الدنجال يتاجر في السلاح أو في الممنوعات؟! كنت أسال نفسي. انتهى العرس على ما يرام بدون مشاكل. سكنت أختي مع زوجها الملازم فرّارة في راس حسن، في زنقة ضيقة لكن في حوش باهي.

لم يستمر فرّارة معنا في المركز طويلا، انتقل إلى فرع الأمن الداخلي في طرابلس، صار له شنة ورنّة. أنا أيضا انتقلت إلى بيت في حوازة بطاطا الذي بنيته على مهل. حوش عربي في وسطه غرست عنبة بيوضي. أمّي أصابها ضعف في القلب فأصبحت لا تقوم من سريرها إلا قليلاً. أمّي ذات صباح ونحن نشرب الشاهي الأخضر بالنعناع، قالت لي:

"علاش ما تتزوجش؟ مش صاحبك المقرحي بونجورنو عند أخت؟"

"ما نعرفش كان عند وإلا ما عنداش" قلت

"أني نعرف، حتى شفتها من قريب شهر، جابتهالي الحاجة زينوبة الزيّانة هني للحوش"

"بنيّة باهية وسمحة، علاش ما تخطبهاش؟!" قالت أمّي

" إنتي متأكدة؟!" سألت

"امشي شوفها وقرّر" قالت أمي

أنا نعرف وين يسكن بونجورنو لكن عمري ما مشيتله. في العشيّة ركبت الفيسبا بتاعي، مشيت لزنقة بونجورنو جهة جامع القاسي. بالصدفة وأني خاش الزنقة لقيته واقف بحدا الدكان ويسبّس. عندما رآني جاء يركض وهو يشاور بيده نحوي:

"هيّا تفضّل يا مصروب أفندي"

"وصلنا، يا صاحبي" قلت مبتسماً

أخذني من يدي وسار بي إلى بيتهم، هناك رأيتها عند الباب. رأيت حليمة التي أصبحت زوجتي وأم أولادي. كان عرساً ملكياً بمعنى الكلمة، طبعاً استولى الدحّاي على الغناء فيه مع فرقته وبوجود الزرباز منسق وحارس الدحّاي. عندما جاء خليل الحدّاد كان منهكاً جداً، يمشي بصعوبة، سألته ما به، قال الروماتيزم لا أكثر ولا أقل.

العَسس

حدّهم لم ترد على طلبي، في آخر العام الدراسي ولا الأعوام التي تلته. لم أثقل عليها ولم أسألها شيئا. انتهت الدراسة في بنغازي وليس لي صديق فيها إلا عظيّم والغفير الككلي. رجعت إلى طرابلس، تقدمت بأوراقي إلى وزارة التربية والتعليم، عُيّنت مدرس تاريخ في مدرسة طرابلس الثانوية. تغيّرت الأحوال، وتغيّرت البلاد. تعرّفت على الوسط الثقافي والسياسي الليبي الذي كان نشطاً، حماسياً ربما أكثر من اللزوم. كاتب صحفي في جريدة الراية، تعرفت عليه وأصبحنا صديقين. كانت ميوله ناصرية قومية، ومقالاته الصحفية تثير غضب الحكومة. طلب مني أن أكتب في الصحيفة، لكني اعتذرت لعدم قدرتي على الكتابة الصحفية. غير أنني بدأت أقرأ كثيرا عن القومية العربية وأتابع تحليلات محمد حسنين هيكل وكتابات ساطع الحصري وغيرهم كثير. صرت أتحمس عند اعطائي حصة التاريخ في المدرسة، أحاول دائما ربط الحصة بالاستعمار والحرية والثورة والتحول الاجتماعي. جاءني صديقي المصروب في بيتي، بعد أن جلسنا في المربوعة، وشربنا الشاهي، أحسست أنه يريد أن يخبرني بشيء، سألته ما به، فأجاب:

"الجماعة يتابعوا فيك يا حدّاد"

"منو الجماعة يا مصروب؟"

"البوليس السرّي، أمن الدولة"

"كيف عرفت؟!"

"نسيبي النقيب فرّارة، جي، قالي قولّه يرد باله، ويفكّه من تتبيع القوميين العرب"

"راهو فيه جماعة مخبرين في المدرسة بتاعك، هما اللي كتبوا فيك" قال المصروب

"يعني، هو اللي يحب بلاده خاين؟!" سألت

لم يقل المصروب شيئا، نهض ثم التفت لي قائلا"

"رد بالك من روحك، وإلا الزيارة الجاية في الحبس"

خرج المصروب، تركني في حالة مزيج من الخوف والفرح. أني نخوف حكومة؟!

في زيارتي للميلودي، قال لي وهو يقدم طاسة الشاهي بالكاكاويّة:

"الدنيا فيها كل العجب، يا ولدي يا حدّاد، فيها الخامر، وفيها الباهي، فيها الخاين، وفيها اللي يعيش طول عمره في الحبس، ومتنساش وين تحط روحك تلقاها"

"شنو فيه يا عمي الميلودي؟ المصروب قالّك حاجة؟!"

"المصروب ما قالّي شي، لكن نسيبه فرّارة جاني وخبّرني، راهو ملفّك كبير عندهم"

"لكن أني ما درت شيء، هو اللي يحب بلاده خاين؟ اللي يبي القواعد العسكرية تطلع خاين؟ اللي يبّي الناس تكون مرتاحة خاين؟ اللي يبي تعليم باهي خاين؟ اللي يبي صحة باهية خاين؟ اللي يبي الناس معاش تسكن في براريك خاين؟"

كان الغضب واضحاً على وجهي. اقترب الميلودي وقال:

"يدير الله طريق يا ولدي، يدير الله طريق، كان عندك كتيبات أو مجلات أو تسجيلات، جيبهم لي، اندسهملك، لكن رد بالك تقول لحد!"

أحسستُ كم هو عظيم عمي الميلودي، البو اللي ما عقب صغار ودارنا صغاره. نظرت طويلا في عينيه ثم حضنته بقوة قائلا:

"حتى بوي اللي ما نعرفاش ما يدير هكي!"

كنت كثيرا ما أجلس في مقهى الغزالة، مع مجموعة من الكتاب والصحافيين والمحامين.

نتحدث عن البلاد والفقر والمستعمر والتبعية وعبد الناصر والشعر والأدب.

لاحظت، شخصا دائم التردد، يجلس قريبا منا، لا يتكلم معنا لكنه، لا يفارقنا.

قلت لصديقي الصحفي في جريدة الراية عنه، فضحك وقال لي:

فكّك منه هذا مخبر بتاع البوليس السري"

اقتربت منه مرّة وسألته:

"أنت منو؟ وين تخدم؟"

أجاب: "أنت شن دخلك فيّها، امشي على روحك، وتوا يباناك؟!"

لم يمض وقت طويل حتى كنّا في مكتب النقيب فرّارة في جهاز البوليس السرين في سيدي بوعيسى. جميعنا كنا هناك، لم يغب منا أحد. كان المخبر تبدو على وجهه فرحة الانتصار.

حين جاء دوري للتحقيق، سألني فرّارة:

"ألم يحذرك المصروب صاحبك؟!"

"لقد فعل، لكن ما هي جريمتي؟!

"جريمتك العمل على تغيير نظام الحكم"

"أني نغير نظام الحكم؟!"

"إنت وجماعتك. تبو تنحّوا الملك، اخراج القواعد العسكرية الأجنبية، العدل والمساوات، الحرية و.." أجاب النقيب فرّارة وهو ينظر إلى أوراق أمامه ثم أضاف:

"اللي نقدر نديرهولك وهذه على خاطر نسيبي وصاحبك المصروب إن ما فيش حد يضربك والا يدير حاجة خايبة ليك: هني مكان الحاجات الخايبة كلّها"

قدم لي ورقة لأوقع عليها، لكني رفضت، فأمر الشرطي أن يأخذني إلى الشيلّة.

لم يمر وقت طويل حتى قدمونا لنيابة أمن الدولة، التي أمرت بحبسنا في الحصان الأسود، بورطابينيتو، ثم قدمونا للمحاكمة.

كانت المحاكمة حامية، صاخبة، لكن في إطار الدماثة والتهذيب. صدر الحكم بالسجن. كنا نضحك، لأن الوطن الذي أحببناه سجننا! هكذا قال الميلودي عندما زارني في بورطابينيتو

"المحبوس مرّات أكثر حرية من اللي حبسه"

أعطاني ستيكة روثمان، قال هذه من الدحداحي، وأعطاني، طنجرة حرايمي، قال هذي من الفيزقا، وأعطاني، عشرة جنيه.

"المصروب أنت عارف علاش ما يقدرش يزورك؟!" قال لي

"نعم، بلغه سلامي وقوله يرد باله من العيلة"

"عيلتك عيلتنا، ما تخممش فيهم، ما يقربهم شي، ولا ينقصهم شي، بإذن الله، تبّي حاجة ثانية"

في طريقه إلى الباب الرئيسي للسجن، التقى الميلودي بالنقيب فرّارة، الذي أسرع نحوه، سلّم عليه بحرارة، وقال له:

"راهو مش مني، الريح قوية، أني كلّ اللي نقدر نديره، أنه ما يقربه حد من جماعتنا، قوله كان ناقصاته حاجة يبلغني بيها"

"إن شاء الله يصير خير!" رد عليه الميلودي ثم ذهب في اتجاه الظهرة.

الدنجال

الطريق من بلدة غدوة إلى مرزق طويلة وشاقة. الشاحنة مليئة بناس من مختلف المشارب، عمّال، مزارعين، لصوص، باحثين عن الذهب، وتجار أسلحة. أنا من النوع الأخير. تاجر أسلحة صغير، أبيع المسدسات، البنادق، والرصاص، لمن يطلب، من التشاديين والنيجريين، والليبيين. تجارة محفوفة بالمخاطر والمتاعب. لدي شخص يريد شراء مسدسين ألمانيين، هو ينتظرني في مدينة مرزق. أبلغني بذلك واحد من ولاد سليمان تعرفت عليه في أوباري، عندما كنت أعمل في التفتيش الزراعي. هو راجل خيرة، خبير بالناس والمنطقة. كثيرا ما كان يأخذني إلى مزرعتهم في سبها، رجل كريم ومعروف، من سبها إلى تشاد والنيجر.

فجأة أوقف السائق الشاحنة، قال لنا

"انزلوا كلكم. اللي يبي يتخفّف والا يحرّك رجليه أو ياكل حاجة، يديرها. مازال قدامنا خمسين كيلومتر على مرزق"

أني ما عجبني اللي صاير، مكان مقطوع، وخالي، لا شجرة لا بعرة زيّ ما يقولوا.

جيت على تركينا، عبّيت واحد من المسدسات بالرصاص وحطّيته تحت باطي. لا بد أن أراقب السائق، فقد بدأت حركاته تثير الشبهة بالنسبة لي. مشى إلى مقدمة الشاحنة، خشّ تحتها. نظرتُ حولنا، رأيتُ غبارا يعلو في السماء، بعض الصيحات بدأت واضحة. كانوا مجموعة من التباوية جايين رافعين سيوفهم، يصيحوا:

"سلّم فلوسك تسلم"

أخرجت مسدسي وركضت في الاتجاه الآخر بأقصى سرعة. حاول أحدهم أن يجري خلفي فأطلقت الرصاص، توقف عن الجري. واصلت الركض إلى أن ابتعدت مسافة شعرت أنها آمنة لي من هؤلاء الفلّاقة. واصلت السير على قدمي في اتجاه مرزق. وصلتها بعد منتصف الليل. كانت خاوية، صامتة، وموحشة. ذهبت إلى دكان منصور المصراتي، في وسط المدينة، طرقت الباب، سمعت صوته:

"منو اللي يطقطق في عقابات الليل؟"

"أني خليفة، يا منصور"

فتح الباب وأدخلني، جلست على المندار طالبا منه أن يحضر لي برّادة الماء، العطش شديد.

"شن صار فيك يا خليفة؟ هاك خود اشرب، بعدين توا نعطيك ما تاكل"

"اللي صار فيّا، سوّاق الشاحنة التاجوري، البستاردو خاننا، باعنا للتباويا، كان ما هربتش راهو انقتلت"

بدأ منصور في اعداد شرمولة سريعة. التفت ناحيتي قائلاً:

"الصباح رباح، معاش تفكّر فيه، خلينا ناكلوا هالشرمولة ويحلّها ألف حلّال"

في السوق، في الضحى، لقيت سواق الشاحنة مقعمز يشرب في الشاهي، عندما لمحني، كأن الجن لبساته! لم أشعره بأني زعلان، اقتربت منه، ثم جلست بجانبه وطلبت كاس شاهي أحمر

باللوز. نظري ناحيتي في حذر. لم أتكلم معه، بقيت قليلاً ثم ذهبت. قبل الغذاء جاءني عند دكان منصور المصراتي، لم ألتفت له، ولم أعبّره. قال:

"خيرك تشبح لي في شبحة شينة؟!""شن درتلك أني؟" الفلاقة التباوية جو وخدو كلّ شيء، الحمد لله ما فيش حد مات!"

"يا تيس، نشوفك مرة ثانية نقتلك!" صرخت في وجهه، فذهب راكضاً وهو يلوح بيديه في الهواء.

في المساء، بعت المسدسين بثمن كويس. الفجر، كنت شاد الطريق إلى وادي عتبة.

أخيراً قرّرت العيش في النيجر، حيث توجد زوجتي النيجرية وابني خالد، ليبيا لم تعد تطاق.

الفيزقا مات

"الفيزقا مات، ضربه واحد بميلبو، البارح!"

هكذا صاح الدحداحي حين وقف أمام ركّابة الميلودي. خرست ألستنا جميعاً، المفاجئة كبيرة، فقد كان الفيزقا أمس الظهر في مقهى باب بحر، لا باس عليه.

جلس الدحداحي وهو يبكي، على كوتي خضرة، يتنفّس بصعوبة، السبسي في فمه، مطفي.

"كيف صار يا دحداحي، منو اللي قتله؟!" قال الميلودي بصوت فيه رعشة

"اليوم الفجر، في جيهة سيدي بوكر، كنت ماشي لفشلوم، لقيت زحمة كبيرة، مشيتيلها، شبحت الفيزقا غرقان في دمّه"

"كان البوليس لايد بيها، ما قدرتش نقولولهم نعرفه، خفت مداير فالطا، نحصل فيها"

"نشدتْ واحد واقف جنبي، قالّي فورتية فشلوم، قتلوه البارح بعد نص الليل"

"قتله علاش قتلوه؟، قالّي: على حاجة ما تتسمّاشّ عل شيشة بوخة!"

"راجيتهم لين رفعوه لمستشفى شارع الزاوية، وجيت نجري نخبركم"

أشعل سبسي جديد، ثم تركه في ركن فمه وخيط دخان أبيض يصعد منه كما تصعد الدعوات. لم نعرف ماذا نقول. انتظرنا ردة فعل الميلودي، الذي وقف وسكّر باب الدكان، وقفنا جميعنا، مشينا في اتجاه مستشفى شارع الزاوية. في الطريق قابلنا المصروب جاي عالفيسبا بتاعة، وقف وسألنا

"عرفتوا شن صار للفيزقا؟" قلنا له نحن في طريقنا إلى شارع الزاوية.

"تعالى يا عمي الميلودي أركب وراي عالفيسبا، الثانيين توّا يأجروا شريول أو سيارة يجوا بيها"

ركب الميلودي وراء المصروب، ثم اختفيا عن الأنظار. الدحداحي أستطاع أن يوقف كاراطون لولد من مقطع الحجر، قال يعرفه. ما أبعد الظهرة على شارع الزاوية. مَن سيخبر أمّه العجوز وأخته عوّاشة؟ في شارع الزاوية، كانت الدنيا زحمة، نساوين تعيّط، ناس بجرودها ناس من غير جرود. كأنه يوم الموقف، يوم كلّ واحد يأخذ حقّهَ .

شبحنا الدحّاي جي يجري، قال:

"حتى انتم سمعتوا شن صار للفيزقا؟! عالمسموع الِّي ضربه بالموس، واحد مردف من ترهونة، يعيش في فشلوم، سماه الشيركو. لتوّا البوليس يدوّر عليه، اشبح وين هارب!"

كان المصروب والميلودي قد سبقونا، لدار الموتى. مكان موحش، يغبق برائحة كريهة، رائحة موت، العامل الشيباني، الذي يعمل هناك في معطف أبيض، لكنه ليس بياض فرح، بياض موت. حتى اللون يتنقل من حياة إلى موت! على أسفل المعطف بقع دم، بعضها جديدة. لا يتكلم بل يحدّق في عيون الواقفين، كأنه يقول لهم، أنتم لا تعرفون الموت، أنا أعرفه. أنتم تخافونه، أنا لا أخافه. أنتم تهربون منه، أنا أضع إصبعي في عينه. كان يدخل إلى صالة تخرج منها الرائحة قوية، وباردة. ذهب إليه المصروب، سأله:

"الطبيب الشرعي إلداخل؟"

"من الصبح وهو يخدم، شعب حتى الموت ما يرتاحش منه"

"الجثة اللّي يخدم عليها، بتاع الراجل اللي قتلوه في الظهرة؟" سأله المصروب

"أني ما نعرفش، كلّهم زي بعض، امشي أسأل اللّي لابس الكبّوس الحمرا، هو البوليس اللي جي معاه"

ذهب المصروب للراجل، الذي يحمل أوراقا في يده، ويدخن في عصبية واضحة.

"أنا المصروب، ضابط بوليس، نخدم في مركز باب بحر"

"أهلا وسهلا بيك، أفندي المصروب، تفضل؟"

"الراجل اللّي مات في الظهرة، أنت جبته، شن قصته؟"

"كلهم مردف، خمّارجية، وبتاع مشاكل، آهو واحد رفعاته الملايكة.."

"توّا أنت ما تتحشّمش على نفسك، شن عرّفك اللّي مات مش إنسان كويّس؟" " صح وجهك!" "أني اللّي فاضي نكلّم واحد في مستواك، متخلّف!"

مسكه الميلودي من يده، مهدّئاً له. وقف الاثنان في صمت، ووقفنا بجانبهما.

"هيا نروحوا، نفكروا شنو انديروا" قال الميلودي

"أني بنمشي لوكيل النيابة، بعدين نجيكم" قال المصروب

عندما وصلنا إلى بيت الفيزقا، كان خبر قتله قد وصل. ناس ملتمّه ونساوين يعيّطوا. لقينا مختار الزرباز، يستّف في الكراسي، قال جابهم الدحّاي، رأينا مجموعة من الشباب ينصبون خيمة في أول الزنقة. جلس الميلودي، وجلسنا معه على الكراسي.

"توّا الواحد، شن بيقول!" قال الميلودي في حزن شديد

"لازم نوقفوا مع أمه وأخته. نديروله عزي، وتاليف" أضاف الميلودي، ثم صمت

"الدفن ما يصيرش إلا بعد الموافقه من النيابة؟" سأل الدحداحي

"هذي يتولاها المصروب" قال الزرباز

بعد وقت ليس بالطويل، جاء خليل الحدّاد، معه ابنه، سلّم وجلس بجانب الميلودي.

جاء الأفندي فرّارة، جلس بجانب الميلودي والحدّاد، بعد أن سلّم، قال:

"شديناه المجرم الشيركو، توّا ياكل في الفلقة"

نظرنا إليه في مزيج من الحب والكره. كيف يستمتع هذا المخلوق بتعذيب الناس إلى هذا الحد. أحسّ كأنه غير مرغوب فيه، قام، تنحنح، ثم استأذن في الذهاب، واعداً أنه سيأتي في المساء. أدخل الحداد يده في جيب فرملته، أخرج رزمة، قدمها إلى الميلودي:

"هاذو ميتين جنيه، يساعدو في عزي الفيزقا" حدّق الميلودي في عيني الحدّاد، ثم مدّ يده وأخذ الرزمة.

"يا زرباز، تعالى" قال الميلودي وأعطى الزرباز الرزمة، الذي أخذها ومضى.

في التاليف جابوا الشيخ مصباح الفيتوري وجماعته، داروا تاليف ولا في الأحلام! بازين بلحم القعود، الشاهي ما كملش، أحمر وأخضر. كان الدحداحي والزرباز هما اللذان أشرفا على كل صغيرة وكبيرة في التاليف. في الليل جاء المصروب. أخبرنا عن شابة تخدم في شارع الكندي، شنقت روحها. لكن الخبر الذي أدهشنا، هو قوله إن المرحوم الفيزقا كان يحبها، وكان يفكر في الزواج منها. اسمها سالمة القابسي.

"نعرفها! بنيّة قزّونة، تعيش في حوش عيّادة" قال الوالي وهو ينظر إلى الأرض

"قالوا حنّاها قابسية، جابتها وخلّتها عند عيّادة، قالتها، ما نوصيكش عليها، ما عندها حد، وأني ما عنديش حيل نربّيها" أضاف الوالي وهو ينظر إلى الأرض

"اشبح شنو يصير في عيّادة، توّا؟!" قال الوالي

لم يقل أحد منا شيئاً.

"لدنيا هذي فيها العجب! يوم فوق ويوم تحت. يوم جعّأن ويوم شبعان. سوق كبير الداخل فيه خسران، والخارج منها فايز. الدنيا شكارة ألم، وحزن، وشقاء، كلّ واحد لابسها. فيه اللي يعرف، وفيه اللي ما يعرفش إنه لابسها، أخّي على الدنيا!" قال الوالي وهو ينظر إلى الأرض

مبسم طويل ذهبي

بعد أشهر من وفاة الفيزقا، أقفلت عيّادة بيتها عليها، لم تقابل أحد من الناس غير خويدم، تجيبلها في المونة. تابت توبة نصوحة بعد وفاة سالمة. المصروب، جاه السكّر، وطاحوا سنونة. يجي يقعمز على الركابة، يتبادل الأحاديث مع الميلودي، وبالناصر، يضحكون. بالناصر الذي لم يرَ الشمس منذ أكثر من عشرين عاماً. كيف استطاع البقاء حيّا داخل الدكان، لا أحد يعلم، إلا الميلودي!

مختار الزرباز والدحّاي لم يعودا يتردّدان على الميلودي. كنّا نشاهد الدحّاي يغني في التلفزيون، يرتدي بذلة سوداء، وقرواطة. يغني ويهز يديه مائحاً يميناً ومائحاً شمالاً.

الدحّاي غير اسمه الفني إلى، أحمد فكري. أغلب أغانيه من ألحان الفنان الموسيقار المجدّد، كاظم نديم. في أعياد الاستقلال، يغني بحماس. مرّة قام بزيارتنا في دكان الميلودي، بسيارته الجديد، لنقلي. مراياتها يلمعوا، لونها رمادي زي سحاب الفجر. يسوق فيها الزرباز.

الدحّاي أو أحمد فكري، لا يعرف قيادة السيارات. قال لنا وهو يرفع مبسم الروثمان عالياً:

"اختارتني الإذاعة للمشاركة في مهرجان الأغنية العربية في الجزائر، معانا سلام قدري، عبد اللطيف حويل، محمد صدقي، ونوشي خليل"

"بالله عليك ما تنساش تجيبلنا صنيديق دقلة نور!"

قال الدحداحي وهو يحدّق في مبسم الروثمان في فم الدحّاي

"نجيبلكم الجزاير كلّها، غالي والطلب رخيص"

قال الدحاي، ثم أخرج علبة صغيرة من جيب السيارة الأمامي، وقدّمه إلى الدحداحي، الذي أخذه، مندهشاً. كان بداخل العلبة مبسم طويل مذّهب. صاح الدحداحي بصوت مخنوق:

"الله عليك يا صاحبي، جبتلي اللّي نبّيه من زمان"

أحسسنا جميعا بحب وفخر كبيرين نحو الدحّاي. صاحب صاحبه، حقّاني ما ينساش.

"يا ميلودي، هذا صندوق بعتهولك الدنجال ليه شهرين معاي، قالي ما تفتحاش، إنت بس يا ميلودي اللّي تفتحه"

أعطى الدحّاي الميلودي الصندوق الخشبي، المغلّف بقماش غليظ رمادي.

أخذ الميلودي الصندوق، لكنه لم يفتحه، دخل به إلى الدكان، ثم عاد وجلس، دون أن يقول شيئاً. نحن لم نقل شيئاً.

بعد مغادرتهم المكان، بقي الميلودي جالساً وحيداً، يفكّر في الدنجال والصندوق الذي أرسله إليه مع الدحّاي. ماذا في داخل الصندوق؟ هل وجدَ ما طلب منه؟

"خيرك يا ميلودي قاعد برّا بروحك؟!" جاء صوت بالناصر الضعيف

"نتبرّد شويّة" قال الميلودي

"شنو فيه الصندوق اللي دسيته تحت الطارمة؟"

"ما نعرفش ما زال ما فتحتاش، هذا بعتهولي الدنجال

"باهي، باهي، تصبح على خير." قال بالناصر

لمح الدحداحي قادماً على دراجة هوائية. العرق يسيل على وجهه والسبسي لاصق في فمّه!

"السلام عليكم عمي الميلودي، الحمد لله لحّقت عليك قبل ما تسكّر!"

"خيرك، لا باس؟!"

"نبي منك خدمة ما ننساهاش طول العمر"

"كان نقدر عليها!"

"انت تعرف يا عمي الميلودي صداقتي بالمرحوم الفيزقا، نبيك تخطب لي أخته عوّاشة"

"عندك حوش بروحك؟!"

"كان وافقت هي وأمها، نقدر نأجر حويش في فشلوم والا الظهرة"

"أني ما عنديش مانع، الأسبوع الجاي نكلّم المصروب ونمشوا مع بعض" قال الميلودي، ثم نهض من على الرّكّابة ودخل الدكان. لم ينزر خلفه إلى الدحداحي الذي ركب دراجته وانطلق يصفّر لحن فريد الأطرش: هلّت ليالي حلوة هنيّة.

أخرج الصندوق من تحت الطارمة، حدّق فيه طويلاً، ثمّ فكّ الحبل، ورفع الغطاء.

لم يتوقّع أبداً الذي في الصندوق: مسدس، خنجر تارقي منقوش، ومصحف قرآن بزخارف مذهّبة، وزهم نعام، وورقة عليها كتابة.

الخنجر حطّه في القجر. المسدّس حطّه في جيب الفرملة. المصحف، قبّله وخلاه في الصندوق. أخذ زهم النعام، وضعه فوق الرف الأوّل. أقفل باب الدكان، ركب على دراجته الهوائية إلى بيته، في جامع الصقع.

في ساعة مبكرة من صباح اليوم التالي، ذهب الميلودي إلى حوش الحدّاد. كان الشارع فارغاً إلا من عدد قليل من الناس يخرجون بيوتهم ثم يختفون سريعاً.

"صباح الخير عمي الميلودي، تفضل ادخل، إن شاء الله خير؟!" قال الحدّاد

"ما فيه إلا الخير يا ولدي" ردّ الميلودي وهو يدخل المربوعة

"شنو تشرب، شاهي والا قهوة؟"

"اللي فيه باهي"

أخرج الميلودي الورقة التي أرسلها الدنجال مع الصندوق

"هذي رسالة بعتهالي الدنجال، نبيك تقراهالي على رحمة الولدين"

أخذ الحدّاد الورقة وبدأ في قراءتها:

بسم الله الرحمن الرحيم، والصلاة على نبينا أشرف المرسلين، أما بعد..

عمي الميلودي، مشتاق كثيرا لرؤيتكم والحديث معكم. لكن تقلبات الزمان ولقمة العيش، جعلتني أكتب إليكم من الكفرة. أنا بخير. بالله رد بالك على أمي، وسلملي هلبة على

الصحاب والحبايب وما تنساش عمي بالناصر. الكمّيّة بعتهالك، والمسدس اللي طلبته مني دورت لين جابوهولي.

يا عمي الميلودي كان تبي أي حاجة ابعت باسمي رسالة، الكفرة، دكان، عبد الله المصراتي. توصلني. سلام ختام. الدنجال.

"مشكور يا ولدي، توّا اعطيتي الإذن نبي نمشي" قال الميلود وهو يقترب من باب المربوعة

" عندك الإذن، نشوفك العشية إن شاء الله" قال الحدّاد

فتح باب الدكّان، سمع كحّة بالناصر وصوته الضعيف.

"الدنجال بعتلك زهم النعام، توّا نعطيهولك باش تداوي ركبيك"

"الدنجال بطل، بارك الله فيه"

أمسك بالناصر الحكّة، فتح الغطاء، شمّ الزهم.

"هذا الزهم الحقّاني مش اللي يبيعوا فيه في سوق الحرّارة!" قال بالناصر

"المهم تدهن بالشوية، مش تكملها في مرة وحده!" عقّب الميلودي

تحسّس المسدس في جيب فرملته، ثم ابتسم ابتسامة عريضة.

من نافذة المركز، شاهد المصروب الميلودي يركن دراجته على السور. خرج مسرعاً، التقى به عند الباب الرئيسي.

"السلام عليكم عمي الميلودي، إن شاء ما فيه سوّ؟!" سأل المصروب

"ما فيه إلا الخير، خلي انخشّوا ونقولك" قال الميلودي وهو يلهث قليلاً

دخلا يتقدمه المصروب الذي فتح باب مكتبه، ثم صاح بصوت عالٍ:

"قهوتين معدلات يا مصباح"

"أمس جاني الدحداحي، طلب مني نخطبله عوّاشة أخت المرحوم الفيزقا" قال الميلودي

"شوف شن يطلع منّه الدحداحي!" عقّب المصروب ثم أضاف

"باهي شنو المطلوب مني؟!"

" غدوة العشية تمشي معاي، لكن بلّغهم إنا حني جايين زيارة" قال الميلودي

"اللي تؤمر بيه يا عمي الميلودي يصير"

بعد صلاة العصر، مرّ المصروب بالفيسبة بتاعة على محل شهريار، اشترى زوز كيلو بكلاوة بالعسل الطبيعي، ثمّ توجّه إلى دكان الميلودي. وجد الميلودي ينتظر. مرتديا جرد أبيض، وفرملة لالاجا، وكبّوس حمرا جديدة، ومداس جديد'

"هيّا اركب يا عمي الميلودي!" قال المصروب وهو مازال على الفيسبة

ركب الميلودي خلف المصروب، وهو يقرأ الفاتحة والمعوذتين بصوت خافت.

وصلا أمام حوش الموحوم الفيزقا. نزل الميلودي، ودقّ الباب.

"اشكون؟!" جاء صوت نسائي ناعم

"أني عمّك الميلودي يا عوّاشة ومعاي عمك المصروب"

فتحت الباب، أعطى عوّاشة البكلاوة، ثم دخلا إلى المربوعة، جلسا على مندار نظيف مرتّب، قدامهم سفرة لوح عليها شيشة أمّية، وطاستين فارغات.

"منو الحاج الميلودي ولفندي المصروب؟! مرحبتي بالغاليين، أحبابنا وأحباب المرحوم" قالت العجوز التي دخلت وجلست على طرف المندار، مغطية وجهها بردي البرمبخ

"كيف حالك وكيف الدنيا معاك؟" سأل الميلودي بعد أن ملأ الطاسة بالماء التي تفوح منه رائحة الزهر.

"الحمد لله، سبحانه" قالت العجوز

"يام القهوة قدام الباب" صاحت عوّاشة

قام المصروب وأحضرها مع قطع غريبة ومقروض

"شوفي يا حاجة، نبي نجيك مالأخير، الدحداحي صاحب المرحوم الفيزقا، جاني أمس وطلب مني نخطبله عوّاشة، شن رايك؟! قال الميلودي

"والله شنو الواحد بيقول، انت جيتك ولفندي المصروب راهي مش ساهلة، لكن خليني نمشي نسالها!"

بعد قليل سمع الميلودي والمصروب زغروتة.

"آهو تم الموضوع يا عمي الميلودي" قال المصروب

رجعت العجوز جلست على طرف المندار وقالت

"على بركة الله يا ميلودي، على بركة الله"

"قبل ما ننسى، اللي تطلبوه من شروط احني ما نقصروش" قال الميلودي

"شروطنا يكون راجل ويحميها" قالت العجوز

ركب الميلودي وراء المصروب على الفيسبة، وطلب منه الذهاب إلى شارع بوتشيني، مكان عمل الدحداحي. لمح الفيسبا قادمة وعليها المصروب والميلودي، قال في نفسه"تبحبحت"

نزل الميلودي والمصروب، قدام محل تصليح الدراجات الهوائية.

ركض الدحداحي إلى الدكان المجاور أحضر أربعة شيش رنجاتا، ثم جلس ينتظر.

"وتّي روحك يا دحداحي، وافقوا" قال الميلودي

"جميلك انت ولفندي المصروب ما ننساه طول عمري" قال الدحاحي وهو لا يدري أيجلس أم يقف أم يرقص!

الميلودي

أمام الدكان، الذي أغلق بابه بالمفتاح، على بالناصر بعد أن أوصاه أن يدهن ركبيه بزهم النعام. جلس وحيداً، أخرج حكة نفّة صغيرة، دقّ عليها بأصبعه مرتين، فتحها، أخذ نتفة استنشقها عميقاً.

"لو الواحد ما يلقاش نفةّ يموت في ها البلاد!" قال لنفسه وهو يبتسم

"حتى ني وليت زي الدحداحي!"

منذ أن رأى مبروك وجه السليخ قدام سوق باب الحوت، منذ عدة أشهر، مصادفة. شعر لأول مرة في حياته بالخوف والقلق. مبروك الذي مشى معهم إلى بر الحبش. مبروك الذي لم يحبه أحد من السرية. حتى الضابط الطلياني كان يدفل على وجهه كل ما يراه. مبروك السليخ، اللي ضحكته تجيب القدّاد! مبروك الخنّاب، الشوشيد، بتاع الفروخ! مبروك يبيع أمّه مقابل جنيه!

عندما دخلوا بر الحبش، كان المبروك ديمة في آخر الطابور. وقت العركة ما تشبحاش. تشوفه غير وقت الأكل. في ليلة كان نائماً، فجأة أحسّ كأن في شخص يعيّط، نهض واقفاً، وبدأ ينصت ليتعرف على مكان الصوت. مشى خلف شجرات، رأى المبروك بارك على خميس لفطح، وهو يعيّط عليه، يقول له:

"والله كان ما تسكتش نقلك"

ركض الميلودي وبكل قوته، ضرب المبروك على عنفقته، لين طاح. هرب خميس لفطح وهو يرفع في سرواله. وقف الميلودي الخنجر في يده على رأس المبروك وهدّده:

"يا وجه السليخ، يا خامر، كان مازال تدير العفن بتاعك، نقطعلك راسك"

ثم ضربه بالخنجر على وجهه، فسال الدم غزيرا.

"العار ما يغطيه كان العيب يا ولد الشيطان" قال الميلودي وهو يمضي بعيداً عن المبروك.

"والله إلا ماني قاتلك ولو كنت في آخر الدنيا!" قال وجه السليخ

في الأيام التالية لا حظ أن المبروك يتعقبه ويراقبه، بدأ يأخذ الحذر منه. أيضاً الميلودي خبّر صاحبه الريّاني، الذي ذهب إلى المبروك، شدّه من رقبته، وضربه لين طيّحله سنونه.

"اللي يمسّ الميلودي بشعره، نسلخله جلده!" قال الريّاني

ثم فجأة اختفى المبروك، درروا عليه ما لقوه. الطلياني سجّله مفقود.

"آك ارتحت منّه وجه السليخ" قال الرياني للميلودي جالسين تحت شجرة.

"أني نعرفه ما ماتش، هو هرب لليبيا" قال الميلودي

مرت كلّ هذي السنين، ثم يراه فجأة أمامه قدّام سوق الحوت. يمسح بيده على أثر الجرح على وجهه ويبتسم. استمر الميلودي في طريقه نحو باب الجديد، حين التفت وراءه لمح المبروك قادما.

عندها عرف أن الحال صار يخوّف، ولازم يدبّر أموره على مهله وينهي الموضوع بالكامل.

عرف بعد مدة من واحد يخدم في الدلالة في سوق الرباع، اين يقيم المبروك. في دويرة في الفنيدقة. دخل إلى الفنيدقة، بعد مغادرة المبروك للمكان، سأل العسّاس عليه. أخبره أن راجل عاف، سكّارجي وبتاع فروخ. كل ليلة بعركة.

كان ذلك قبل أن يسافر الدنجال إلى فزّان. الميلودي كان جالس، جاه الدنجال ومعاه كيس انزاص. قهمز بحداه، لك لاحظ أن الميلودي شارد مش زي عوايده. سأله:

"خيرك عمي الميلودي، لا باس عليك؟!"

"فيه ميضوع، نبي نقولهولك لكن ما نبي حد يعرفه" قال الميلودي

"فيه واحد زمان كان معانا في بر الحبش، عافن، دار حاجة خايبة، ضربته بالكمية على وجهه.

وقالي لابدّ نقتلك"

"يا رسول الله!" عقّب الدنجال

"المهم، من يومين شفته في سوق الحوت، وقعد يتبع فيّا"

"نقدروا نقصفوله عمره كان تبي يا عمي الميلودي" قال الدنجال

" إنت يا ولدي متقصّد بر فزان، ربي يجيبهالك زينة، وهذذ قضيتي أني، أني نحلّها"

"سمعت يبعوا في السلاح في في فزان، نبيك تشريلي مسدس، وتبعتهولي" قال الميلودي

"اعتبره عندك يا عمي الميلودي" قال الدنجال.

أخيراً عرف الميلودي أين يعمل المبروك. حمّال في باب الجديد. أخيراً عرف كيف يتّقي شره ويخلص الناس من شروره وعفانته.

جاء المصروب إلى الدكان، نزل من الفيسبه، يبدو عليه التعب والإرهاق.

"السلام عليكم عمي الميلودي"

"وعليكم السلام أفندي المصروب، تعالى اقعد بحداي، الطاسة واتية وباللوز"

"تعرف! البارح، جتنا خبريّة، مشينا لباب الجديد، بحدا مصنع الدخان، لقينا واحد يلقّف، مدّشدش، لين خلاص"

"ميت والا حي؟!"

"لا، حي، لكن الموت خير من حياته، تعرف، اللي ضاربينه، مدايرين في عمايل ما تنقالش"

"شنو يا مصروب؟!"

"مكسرينله رجليه، وقاطعينله خصاويه، تعرف يا عمي الميلودي، اللي مدايرله العملة هذي ما كان شيبيه يموت، على خاطر صاب قطران على خصاوي المضروب باش الدم يوقف"

"هو شنو سماه يا مصروب؟"

"درونا جماعة يخدموا في باب الجديد، قالونا، إنه سماه: المبروك، واحد عافن"

"باهي شن درتوا؟"

رفعناه للمستشفى، وسجلنا القضية ضد مجهول"

"تعرف يا مصروب، اللي يدير العافنة هكّي يصيرله"

"عمك بالناصر معادش حالته باهية، نفكّر نرفعة الداوون. الدكان معاش يناسبه" قال الميلودي وهو يرفع طاسة الشاهي إلى يد المصروب الممدودة.

"وحتى أني يا ولدي، كبرت، نبي نرتاح!" قال الميلودي بصوت متعب

"إنت الخير والبركة يا عمي الميلودي، بالك محتاج في حاجة؟" قال المصروب

""انهونوا عليك عمي الميلودي؟!"

"لا، لكن العمر يحكم يا ولدي!"

"عندي قطيعة أرض صغيرة شاريها بكري في قريتنا في الداوون، ببنيت عليها حويش على قد الحال، نمشي نسكن فيه أني وعمك بالناصر، لين ربك ياخد أمانته" قال الميلودي

"آمتا بتسافر؟"

"مش عارف يا ولدي"

الشتاء

مرّ الشتاء قاسياً هذا العام. أمطار غزيرة، سيول، وأشجار نخيل كثيرة سقطت. بدأت محطة الإذاعة والتلفزيون في بثّ حفلات الفنان الكبير، مجدّد الأغنية الليبية أحمد فكري. أحمد فكري أو الدحّاي، صار مدير عام قسم الموسيقى في الإذاعة. تزوّج من فنانة مشهورة، وسمّى ابنه البكر: الميلودي. حين علم الدحداحي بذلك، لم يتوقف عن الضحك. قال:

"لو يعرف عمي الميلودي إنه فيه واحد اسمه: الميلودي الدحّاي، ينجنّ"

كنّا نضحك معه، نقول يا حسرة على الأيام. تقرب وتبعّد. الميلودي رجع لبلاده، سمعنا قالوا تزوج مرا كبيرة في السن، وأن عمي بالناصر ما طوّلش، توفّى.

خليل الحدّاد أصيب بالجلطة، لم يعد يستطيع الكلام ولا المشي. قمت بزيارته عدة مرات في بيته. كان ينظر إليّ في حب، عيناه تبتسمان، يهزّ رأسه، كأنه يريدني مواصلة الكلام. هو يريد فقط أن يسمع صوتي. كنتُ أمسك بيده، أضغط عليها وأنا أحكي له عن مقالب الزرباز والمصروب. أخبرني ابنه محمود الذي أصبح محامياً مشهوراً في طرابلس، أن أباه، يفرح بزيارتي، طلب مني عدم نسيانه، فهو يبقى عدة أيام فرحان بعد كلّ زيارة.

أخبرت الحدّاد أن عمي الميلودي رجع لبلاده وحالي باهي. لكن الدكان أصبح فارغاً، والركّابة فارغة. ثم خطرت على بالي فكرة أفرحتني.

"شن رايك يا حدّاد نرفعك معاي، نقعمزوا على ركابة الميلودي، نعيدوا ذكريات زمان؟!

لمعت عيناه ببهجة كبيرة. أحضر ابنه محمود الكرسي المتحرك، ساعدني في إدخاله السيارة، وانطلقنا إلى دكان الميلودي، وركّابة الميلودي. نسائم أوّل الربيع تضرب وجوهنا، حرّك الحدّاد يده السليمة، أمسك يدي، ضاغطاً عليها بحنان ومحبة كبيرتين.